

أيهما هو الصحيح الخلق أم النشوء؟

الدكتور و. ي. أو انيل
تعريب: هاني رجا جريس

All Rights Reserved

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يجوز نشر أو إعادة نشر أو طبع هذا الكتاب بأي طريقة طباعية أو إلكترونية بهدف بيعها أو المتاجرة بها أو وضعها على شبكة الإنترنت إلا بإذن من الخدمة العربية للكرامة بالإنجيل. يمكنك أن تحتفظ بالكتب والمقالات للإستخدام الشخصي، كما يمكنك أن تنسخها لأجل توزيعها مجاناً لتعم الفائدة.

المحتويات

كلمة المعرب
لا تدعهم يخدعوك
ضرب من قصص الخيال
لا إمكانية ثالثة للخيار
اهتزاز أوراق الشجر
تجرّع المر
الحنفية الناقطة
طبخة باننة
الكتاب المقدس يجيب
وماذا بعد؟
ملحق: داروين المؤمن

كلمة المُعَرَّب

بالرغم من أن هذا الكتاب ليس الأول من نوعه حول موضوع (النشوء والخلق) إلا أن بعضاً من مزاياه وخصائصه دفعتني إلى ترجمته للعربية.

فالمؤلف هو عالم هولندي شاب لم يتخطَ العقد الرابع من عمره. ومعروف في بلاده وفي سائر دول أوروبا الغربية وأميركا كباحث متخصص في دراسة الأحياء. ومن خلال نشاطه في الدفاع عن الإيمان المسيحي الخالص كما يعلنه الكتاب المقدس. وله برامج في التلفزيون والراديو. ويشترك في ندوات خاصة، ويحاضر في الجامعات، وفي الاجتماعات والمؤتمرات المسيحية. ومع ذلك ففي الترجمة الإنكليزية لهذا الكتاب لا تجد اسم المؤلف إلا على الغلاف الداخلي. والتعريف الوحيد الذي تجده إلى جانبه هو (مسيحي وبيولوجي).

الكتاب. كما ذكر المؤلف، موضوع بالأساس لطلاب المدارس الثانوية. ولذلك تجده مقتضباً وموضوعاً في لغة بسيطة سهلة خالية من التعقيد العلمي مع أن كل الحقائق الواردة فيه عملية مستقاة من مصادر شديدة لموضوع واسع جداً يجدر بنا دراسة كل نقطة فيه. وقد وضع المؤلف قائمة من كتب البحث العلمي في نهاية الكتاب لمن يريد دراسة الموضوع عن كثب وبتوسع.

في النهاية. أود أن أنوه بحقيقة هامة وهي أن الإيمان بالله ليس مسألة نظرية تدخل في نطاق العلوم البشرية بل هي اقتناع وجداني خالص يعلو على كل الآراء والقضايا الفلسفية والعلمية والأدبية والتاريخية والشخصية. والمؤلف أراد أن يوضح في كتابه هذا أن البحث العلمي لا يقف عقبة أمام الإيمان الحقيقي وإنما يقف إلى جانبه في كل دقائقه، ومنه يستمد العون والتوجيه الصحيح.

هاني رجا جريس

لا تدعهم يخدعوك

تم تأليف هذا الكتيب خصيصاً للشباب الذي يواجه اليوم هذا السؤال الصعب: "ترى ما هي الحقيقة، هل العالم هو خليقة الله أم أنه وليد التطور؟"

الحقيقة أن هذا السؤال بالغ الأهمية ربما تكون قد أقيمت في البيت أن جميع الأشياء هي خليقة الله. وتقبلت قصة الخلق الكتابية الواردة في سفر التكوين (ص ١ و ٢) على أنها حقيقة. بعد ذلك سمعت قصة مختلفة من معلمك في المدرسة (أو حتى من خلال التعليم الديني) حيث قيل لك بأن الأرض تطورت ببطء شديد من "سديم غازي" أو من شيء من هذا القبيل. وإن النباتات والحيوانات لم تُخلق وإنما نشأت وحدها تلقائياً من المادة الميتة. وهكذا قيل أنه في البداية كانت "الكائنات" البسيطة البالغة الصغر ومنها تطورت تدريجياً كائنات أضخم وأكثر تعقيداً (وهي النباتات والحيوانات) وقد احتاجت هذه العملية إلى ملايين السنين، هذا ما قالوه لك. أما البشر، فقد تطورا ببطء من أحد أنواع الثدييات الشبيهة بالقرود فاحتاجوا أيضاً إلى مئات الآلاف من السنين.

هنا تبرز المعضلة أيهما هو الصحيح- الخلق أم التطور؟ أو لو كان السؤال شخصياً: هل أنت نسخة مُحسنة عن بعض القرود أم أنك مخلوق أصيل صنيعه الله؟ ربما تجيب: "لحظة من فضلك، إن معلمي (أو رجل الدين) يقول بأن الخلق والتطور ليسا فكرتين متضادتين على الإطلاق فهو يقول بأنه من الممكن جداً أن الله خلق الكائنات على طريقة التطور. في هذه الحالة يكون الله قد (خلق) النباتات والحيوانات عن طريق إفساح المجال لهم بالتطور التدريجي من نوع إلى آخر".

نعم، إن الله قادر على ذلك. ولكن، هل فعل الله هكذا؟ هل يعتقد معلمك ذلك لأن الكتاب المقدس يقول أن الله خلق ما خلق بهذا الأسلوب؟ قطعاً لا. لأنه يدرك تمام الإدراك أن "الخلق" بالكتاب المقدس يظهر لنا كعمل الله في الحال. نقرأ في سفر المزامير أن الله "قال فكان، هو أمر فصار" (مز ٣٣: ٩) وإن معلمك يعرف جيداً أن الكتاب المقدس لا يتكلم أبداً عن فترات تبلغ ملايين السنين صنع بها الله النباتات والحيوانات والبشر. بل على العكس إذ يقول الكتاب المقدس "في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها، واستراح في اليوم السابع" (سفر الخروج إصحاح ٢٠، عدد ١١).

قد يقول معلمك أو رجل الدين أن الله يخلق الأشياء بطريقة النشوء، ولكنه لا يملك أي استناد يثبت ذلك من كلمة الله. الكتاب المقدس لا يتكلم عن تطور بطيء عبر ملايين السنين وإنما عن أعمال حالية خلال أسبوع واحد ذي ستة أيام. إذن فالحقضية هي: إما أن يكون خلقاً كما يعلن الكتاب المقدس أو أن يكون نشوءاً.

ولكن كيف يمكن تعليل كون معلمك يُقر بأنه مسيحي (فهو يتكلم عن الله بأنه هو الذي يخلق) وهو مع ذلك يعتقد بالنشوء على الرغم من معرفته بأنه يتعارض مع التعليم الأساسي للكتاب المقدس؟ السبب هو أنه كان قد تعلم أن النشوء هو حقيقة علمية لا تقبل الجدل، ولا يرتاب في أمرها أي دارس مضطلع، لذلك يقرر بأن المعنى الحرفي للكتاب المقدس لا يمكن أن يكون صحيحاً، والخلاصة أنه يُحرّف الكتاب المقدس معلناً أن الله خلق الحياة بواسطة النشوء. فيفترض أن مثل هذا (الخلق النشوئي) يحل جميع قضاياها.

لكن معلمك بتصرفه هذا إنما يُبعد نفسه عن كلا الفريقين اللذين يحاول هو الاعتماد عليهما. فإذا حَدَّثَ زملاءه غير المؤمنين أن الله هو الذي وجّه عملية نشوء فلسوف يضحكون عليه. لأن النشوئيين الحقيقيين لا يحتاجون إلى الله، فلا مكان لله في تعليمهم، ويقولون "أعطنا الملايين أو المليارات من السنين، والصدفة العمياء تقوم بالباقي" فالوقت والصدفة إذن هما الآلهة التي أنجبت النشوء.

أما إذا التفت معلمك إلى أقرانه من المسيحيين المؤمنين بالكتاب المقدس ليقول لهم بأنه هو أيضاً يؤمن بالخلق، إذ هو ليس ذلك المنكر لإيمانه وإنما يؤمن بأن الله خلق الأحياء بواسطة عملية النشوء، فلسوف ينظرون إليه بشيء من الرثاء. لأن المسيحيين المخلصين الذين يتقون بأن الله صادق في كلامه يدركون جيداً أن معلمك يستنتج من خلال "الخلق" أمراً يختلف كلياً عما هو في الكتاب المقدس إذ لا مكان للنشوء في إيمانهم. تخيل معي ماهية هذا الإله المعبود المطلوب لإرضاء إيمان معلمك بالخلق النشوئي. هذا الإله الذي إذ كان قد جعل الإنسان في فكره كعمله الإبداعي الأعلى ولكنه احتاج إلى مليارات السنين لإنشائه. علاوة على ذلك فهو يفترض أن يكون قد طُوّر الإنسان من خلال الموت والهدم وبقاء الأصلح في صراع البقاء. ويفترض أن يكون قد اتبع خطة تتحكم بها آلاف حوادث الإخفاق والنتائج العمياء جنباً إلى جنب مع آلاف الأنواع (غير الناجحة) التي ينبذها إلى أن يستطيع... في النهاية، وبعد أخطاء وتجارب أن يصل إلى هدفه: (الإنسان). فهل هذا هو الله الذي يحدثنا عنه الكتاب المقدس؟

بالرغم من الجهود التي يبذلها الكثير من المعلمين لتثبيت فكرة الخلق النشوئي في ذهن تلاميذهم، فالقضية لا تزال جاثمة بذات الضخامة التي كانت بها قبلاً: أيهما الصحيح، الخلق أم النشوء؟ كلاهما لا يمكن أن يكونا في ذات الوقت على حق. إذن فالمصادر التي تستقي منها المعرفة ليست جميعها بالضرورة صحيحة. وأنت في حيرة لا تدري بأيهما تأخذ. ولكن... الحذار، لا تدعهم يخدعوك بأفكار خاطئة فإما:

أن يكون الله قد صنع العالم في ستة أيام كما كنت قد سمعت ولقنت عندما كنت صغيراً.

أو:

أن يكون الإنسان قد نشأ وترقى كما يعلن معلمك (أو حتى رجل الدين) وهؤلاء يحاولون أن يستندوا إلى كون الأشخاص المتعلمين اليوم يؤمنون بالنشوء لأنه قد تبرهن علمياً.

وباختصار, من نصدق: كتاباً قديماً لا أمل يرجى منه أم العلم المعاصر؟

بماذا يجب أن نعتقد: أبنظرية النشوء, وليدة التفكير البشري, غير المدعومة بالحقائق أم بالكتاب المقدس- الكلمة الكاملة الآتية مباشرة من لدن الخالق؟

أيهما هو الصحيح- الخلق أم النشوء؟

ضرب من قصص الخيال

مما يدعو للأسف أن معظم معلمي البيولوجيا هذه الأيام يُعلّمون طلابهم أن النشوء هو حقيقة مقبولة عند كل العلماء. لا تظن أن هؤلاء المعلمين يقصدون تضليل تلاميذهم بتلك البساطة لأن ذلك لا يتلاءم ورسالتهم. بل هم يؤمنون عملياً بأن التطور هو حقيقة أصلية. ليس لأنهم كانوا قد تفحصوا الحقائق بأنفسهم، فليسوا الحظ معظم دارجي علم الأحياء لم يقوموا ولا مرة بدراسة شاملة لما يسمى ببراهين الوجود للنشوء! قد يبدو هذا الأمر غريباً ولكنه صحيح. فالنشوء هو موضوع اختصاص عال قام ببحثه بحثاً شاملاً نسبة ضئيلة من علماء البيولوجيا.

كيف يستطيع معلمو البيولوجيا أن "يعلموا" بذلك التأكيد أن الإنسان ينحدر من أبسط الكائنات على طريق النشوء؟ إنهم يعتقدون ذلك استناداً إلى مراجع الآخرين. لقد تعلموا "البراهين" دراسة كاملة، فضلاً عن ذلك فلربما لم يقابلوا الآن عالماً في البيولوجيا يحمل رأياً آخر.

قد يبدو غريباً ولكنها لم تزل حقيقة واقعة أنه كلما قل إدراك الفرد للنشوء، كلما ازداد اقتناعاً به! لحسن الحظ، فإن الكثيرين ممن تخصصوا في موضوع النشوء هم باحثون وناقدون حذرون. أما طلابهم الذين سمعوا فقط عن ذلك، والذين لم يشاهدوا ولو مرة المشاكل المعقدة المرتبطة بقضية النشوء لا يجدون حرجاً في قبولها، وسرعان ما يثوروا مخاصمين حين يعلن أحدهم اعتراضه. الأمر المضحك (بل قل المحزن) هو أن الكثيرين من اللاهوتيين ورجال الدين الذين لا إمام لديهم أبداً في مادة البيولوجيا غدواً من أكثر المدافعين المتحمسين عن الاعتقاد بالنشوء. يا للمساكين!

بل وحتى طلاب المرحلة الثانوية المراهقين الذين هم أقل استيعاباً لهذه القضايا من طلاب البيولوجيا الجامعيين أصبحوا من المدافعين المتشددين. في وقت من الأوقات حين كنت أقوم بتدريس البيولوجيا في مدرسة مسيحية، هل لكم أن تصدقوا أن التلاميذ جادلوني محاولين إقناعي بالنشوء! ذلك أن معلمهم خلال الدراسة الثانوية (الذي من الطبيعي أن يكون أقرب إلى الجهل بموضوع النشوء) وكذلك معلم الدين (الذي يكرر بعض أشياء كان قد سمعها عقول هؤلاء الأحداث إلى درجة أنهم نظروا إليّ نظرة الاستنكار والشفقة عندما قلت لهم إنني كدارج للموضوع لا أو من بالأساطير التي سمعوها.

دعنا الآن نرى فيما إذا كان كل ما قاله معكم بمنتهى الإخلاص صحيحاً. ربما كان قد قال لك "ليس من عالم مدقق بالبيولوجيا يشك في صحة النشوء".

الحق أن ذلك ضرب من قصص الخيال. قد يعتقد أنها صحيحة ولكنها ليست كذلك كما سنرى. أنا شخصياً لا أؤمن بها مع أنني كنت قد قمت بدراسة مكثفة لما يُدعى "بالبراهين". بالإضافة إلى ذلك، عملت بالبحث في مجالين تابعين لعلم الأحياء كانا قدما أقوى "البراهين" على النشوء وهما علم الأجنة أو الإمبريولوجيا (مبحث نمو الكائنات قبل ولادتها) وعلم الوراثة أو الجينيتيكا.

وأنا لست المشكك الوحيد! فمنذ عدد من السنين وأنا عضو في جمعية بحث الخليقة Creation Research Society وللانخراط في عضويتها يُفترض بالمنتسب أن يكون باحثاً من حملة الألقاب العلمية ويؤمن بالخلق كما ورد بالكتاب المقدس رافضاً لفكرة النشوء. وهذه الرابطة تضم أكثر من خمسمائة عالم بينهم مختصون في علم الأحياء وفي علم طبقات الأرض وكيميائيون وفيزيائيون وأطباء وأساتذة جامعيون في ميادين أخرى. أعرف بعضاً منهم معرفة حسنة ولذلك أستطيع أن أؤكد أنهم بالمقياس البشري هم أشخاص "مدققون" ويمتلكون طاقات ذهنية فذة والبعض منهم، مثل البرفسور جون ن مور Professor John N. Moore من جامعة ميتشغان الأميركية، هم من ذوي الشهرة الواسعة في ميدانهم العلمي.

أرجوك إذن ألا تدع أحداً بعد اليوم يقول لك أن كل العلماء يؤمنون بالنشوء. في كثير من الدول تستطيع أن تجد العديد من العلماء الذين لا يعتقدون به. التفت قليلاً إلى التاريخ. هل سمعت بالمدرسة عن فارابي، عن ماكسويل، عن اللورد كالفن، عن لويس باستير؟ أولئك جميعاً كانوا من العلماء الواسعي الشهرة وكانوا كذلك خلقين (من المؤمنين بالخلق) عن اقتناع. وقاموا النشئية بشدة في بدايتها عند لامارك وعند داروين.

ضرب آخر من قصص الخيال الذي يقال بالمدرسة عادة هو: النشوء هو حقيقة علمية وهذه أيضاً تتم عن حسن نية (على الأقل دعنا نأمل ذلك) مع أنه لو فكر أي إنسان قليلاً لشعر بأنه لا يستطيع التصريح بذلك. إنه ليس ذلك الأمل السهل لتعيين الحقائق أو فصل الحقائق عن الخيال.

هل هذه حقيقة أن الشمس تشرق؟ بكل تأكيد، أما إذا كنا نشك بالأمر فقد يعني هذا أننا نقطع علاقتنا مع العلم أيضاً لأننا لن نستطيع الثقة بعد بإدراكنا وحواسنا.

هل تقلب فصول السنة حقيقية أيضاً؟ نعم هو كذلك. أولاً، لأن التغيير لا يزال مستمراً ونستطيع أن نلاحظ ذلك في كل ما يجري حولنا. وثانياً، لأننا نعرف من ذاكرتنا ومن الكتب أن هذا التغيير في فصول السنة تم دائماً وباستمرار.

هل هي حقيقة أن معركة القادسية حدثت ذات مرة؟ هنا تزداد الصعوبة للإجابة، لأن المعركة هي غير مستمرة اليوم وليس لدينا أناساً أحياء ممن اشتركوا بها. ولكننا مع هذا لا نزال نعتقد بأن هذه المعركة حدثت فعلاً لأننا نثق الثقة الكافية بالمصادر التاريخية عن تلك الحقبة.

ولكن هل هي حقيقة أن امرئ القيس قضى شبابه في محاربة بني أسد للأخذ بثأر أبيه كما قصها الرواة علينا؟ الإجابة هنا أكثر صعوبة لأننا لا نصدق كل ما تركه جامعو التاريخ الأقدمون عن أخبار العصر الجاهلي. يقول بعض النقاد أن امرئ القيس قد وجد وعاش فعلاً ولكن الرواة قد كسوا سيرته بإطار مفعم بتفاصيل هي من بنات الخيال. بينما يجزم آخرون بأن شخصية امرئ القيس بكاملها منحولة وأن سيرته بجملتها هي وليدة خيال القصاص والرواية العربي في عهد متأخر.

ماذا نستنتج مما سبق؟ إن مسألة اعتبار أي حدث تاريخي (والنشوء ما هو إلا حدث) كحقيقة أو خيال يعتمد على قضية: ما مدى جدارة المصادر التاريخية التي بين أيدينا بالثقة؟ فإذا افترض أحدهم بأن هذه العملية التاريخية لا تزال مستمرة في وقتنا الحاضر فسوف أ طرح بكل جلاء السؤال الثاني: هل لا زلت أستطيع مراقبة هذه العملية من حولي في يومنا هذا؟ هذه هي الحال مع النشوء فمن المفروض أن القسم الأكبر منه تم حين لم يوجد بشر بعد، وبالتالي لم يكن أحد حاضراً لإعطائنا تقرير شاهد عيان عن ذلك. وهكذا فنحن لا نملك أي إثبات مكتوب ولكننا نملك مصادر تاريخية أخرى، وهي الطبقات والمتحجرات التي وجدت بها. أنت بلا شك تعلم أن القشرة الأرضية تتكون من عدة طبقات مرتبة الواحدة تلو الأخرى. وأن الحفريات الموجودة بها هي بقايا النباتات والحيوانات التي تحجرت. والسؤالان اللذان يبرزان هنا هما:

١- هل تزودنا الطبقات والمتحجرات بإثبات أنه خلال وقت ما في الماضي السحيق حدث ثمة نشوء وارتقاء من الكائنات الدنيا إلى الكائنات العليا.

٢- هل تزودنا الطبيعة في الوقت الحاضر بإثبات أن نشوء مشابه يتم اليوم. وهل يشير إلى كيفية حدوث عملية النشوء هذه؟

النشويون يجيبون على هذه الأسئلة بحماس (نعم) ويخلصون إلى أن النشوء هو

حقيقة علمية. ولكنني أجيب على هذه الأسئلة بنفس الحماس (لا) والنتيجة هي أن النشوء ليس حقيقة علمية. وسأشرح بشكل مبسط لماذا أجرؤ على هذا القول.

إذا كان معلمك أحد أولئك الذين يعلنون أن النشوء هو حقيقة علمية، فليس من الصعب أن تتحقق من أن ذلك ليس إلا ضرباً من قصص الخيال. ولكن لا تحاول أن

تناقضه في أسلوب جدلي لأنه قبل كل شيء هو المعلم, ومعرفته في البيولوجيا تفوق معرفتك, وأنت لست إلا لتلميذ لا حول لك ولا قوة. وكل ما عليك أن تفعله هو أن تطرح عليه سؤالاً بسيطاً أو اثنين.

اسأله مثلاً: "أستاذي, هل تستطيع أن تعطيني بعض الأمثلة عن النشوء التي يمكن أن نراها اليوم تحدث أمام أعيننا؟" عندها قد يذكر بعض الأمثلة ولكنها جميعها تبرهن أن النباتات والحيوانات تستطيع أن تجتاز تغييرات وراثية (سترى فيما بعد) لا أن الكائنات الراقية تتطور من الكائنات الدنيا. وهذه الأخيرة فقط هي نشوء. عندها تُخرج سهماً آخر من جعبتك فتخبر معلمك بأنك لم تكتف بعد, لأنك تريد أن ترى أمثلة عن التطور الحالي للكائنات الدنيا إلى كائنات راقية, التي يمكن أن تراها اليوم بأعينك. قد يخبرك معلمك بأن هذا النشوء يتم ببطء شديد لا يمكننا من رؤيته خلال حدوثه. وأنت تصر وتساءله إذا كان الناس قد شاهدوا مرة مثل هذا التطور البطيء يتم خلال آلاف السنين العابرة. أمل أن لا يكون قد نفذ صبر معلمك أثناء ذلك. أما أنت فعلى الأقل تستطيع أن تستخلص النتيجة لنفسك, ما من أحد استطاع أن يرى سير النشوء الحالي أبداً.

بمناسبة أخرى, حين تسنح لك الفرصة, باستطاعتك أن تجرب السؤال الثاني بعدما يؤكد أن المتحجرات تبرهن أن كل الكائنات الراقية تنحدر من كائنات دنيا. تأكد من أنك لا تعارضه أولاً ثم أسأله من جديد بعض الأسئلة البسيطة. حاول هذه مثلاً: "كيف تستطيع المتحجرات أن تبرهن بأن النباتات والحيوانات ذات قرابة الواحدة للأخرى وتنحدر من ذات الكائنات البدائية؟"

"كيف تستطيع المتحجرات أن تبرهن أن قبائل مملكة الحيوان phylae (مثلاً: الديدان الرخويات, اللاحشويات, المفصليات, الفقاريات) هي ذات قرابة فيما بينها؟".

"كيف تستطيع الحفريات أن تبرهن أن النباتات الزهرية انحدرت بالتدرج من النباتات الدنيا؟"

"كيف تستطيع الحفريات أن تبرهن أن الثدييات تطورت تدريجياً من الفقريات الدنيا؟"

قد يرد معلمك بمختلف الأجوبة: قد يبدأ باللف والدوران حول الموضوع, قد يقول بصراحة أنه لا يستطيع الرد في الحال, أو قد يقول أنه لا توجد أدلة على الحفريات, وهذا هو لبّ القضية. ربما تكون لا تزال متجرئاً على السؤال كيف يستطيع بأن يجزم بأن تلك النقاط هي (حقائق) علمية بالرغم من أنه لا توجد أي إشارة تدعمها على الإطلاق.

تستطيع أن تسأله أيضاً عن الحفريات الموجودة التي تشير بأن الإنسان نشأ من أجداد شبيهين بالقردة. ولكنه قد يجد الفرصة عندئذ لبدأ قصة طويلة عن إنسان نياندرتال Neanderthal وعن إنسان جاوه المتحجر Mr. Pithecanthropus (الإنسان القرد) لأنه على الغالب غير مضطلع على آخر الأبحاث في هذا المجال. فإن كان كذلك فهو لا يدرك أن هذه الأسماء اللامعة لم تعد اليوم ذات معنى في قضية نشأة الإنسان من الثدييات الشبيهة بالقردة. ومن الممكن أن يكون قد سمع عن آخر اكتشافات الدكتور ريتشارد ليكي Dr. Richard Leakey في إفريقيا. وفي عام ١٩٧٣ اعترف ليكي نفسه، بالرغم من أنه هو نفسه نشوئي، إن اكتشافاته هو للعظام الإنسانية المتحجرة قضت في ضربة واحدة واحدة بأن كل النظريات الموجودة عن أصل الإنسان لا قيمة لها بتاتاً. وحتى الآن لا يوجد لديه أي نظرية يقدمها بديلاً لسابقتها.

لا إمكانية تالئة للخيار

علماء البيولوجيا هم على اضطلاع تام طبعاً بالأمر التي ذكرها. هذه الأشياء ليست مجرد اختلاق زمرة من المنادين بالخلق. بل إن جهابذة النشويين كثيراً ما رفعوا شارات التحذير، وأشاروا بكل جدية إلى مختلف الأمور المبهمة والمفاهيم غير المبرهنة من نظرية النشوء، وإلى الحقائق العديدة التي تتعارض معها. انتبه، إنني أشير إلى علماء هم قمة في النقد والحذر وذوو اضطلاع على الحقائق! أعرف بروفسوراً نشوئياً اعتاد أن يطلب إلى طلابه بانتظام أن يحددوا ما يعرفون من الإثباتات التي في صالح النشوء، ثم إذا ما كان لديهم صورة متكاملة عن كل الحقائق التي تناقض النشوء! أتمنى لو يزداد معلمو البيولوجيا الذين يُعلمون تلاميذهم بمثل هذا الأسلوب الناقد والمتزن العادل عن النشوء (هذا إذا كان ثمة مبرر لتعليمه على الإطلاق..).

ما الذي حدي إذن بكثيرين، وبالذات المتخصصين- الذين لهم معرفة واسعة بالنظريات غير المبرهنة وبالإثباتات المضادة للنشوء، أن يستمروا مع ذلك على قبوله؟ لأنهم مضطرون إلى ذلك! قد يختلف المؤرخون فيما إذا كان قبر امرئ القيس في بلاد الروم أو في نجد. ولكن حتى وإن لم يوجد امرؤ القيس على الإطلاق فهذا الأمر لا يهمنا كثيراً. أما النشوء فشأنه يختلف كلياً. افترض أنه لم يكن نشوء على الإطلاق، فماذا تتوقع! عندها سيضطر كل العلماء أن يؤمنوا أن السماء والأرض، النباتات والحيوانات والبشر هم مخلوقات الله! وهذا ما يرفضه معظمهم بصراحة. إنهم يفضلون الاعتقاد بالنشوء حتى وإن كان يدعمه القليل من البراهين أو حتى لو لم يكن هناك أي برهان على الإطلاق. وعلى الرغم من تعدد الحقائق التي تناقض ذلك الاعتقاد. لذا تجدهم مجبرين على الاعتقاد بالنشوء، إذ لا إمكانية تالئة للخيار أمامهم ويجب أن يؤمنوا بواحدة.

حلمك يا صديقي قد ترفع صوتك محتجاً إذا كنت قد تعلمت بالمدرسة شيئاً من هذا

القبيل:

- الاعتقاد بالنشوء مؤسس على نتائج البحث العلمي الحديث وهو بذلك (علمي)
- الاعتقاد بالخلق هو عقيدة دينية، مستمد من الكتب الدينية القديمة، وهو بذلك (غير علمي).

ألا تبدو هذه الأقوال حرية بالتصديق! إن هذا النوع من البت تسبب في قدر

كبير من الإساءة، ولكنه برمته غير صحيح إطلاقاً. ولذا أجد لزاماً عليّ أن أؤكد بعض الحقائق. وجدير بك ألا تنساها.

١- إن المذهب النشوئي ليس حديثاً بالمرّة، فهو قديم قدم الجنس البشري. وكان مقبولاً عموماً عند المصريين القدماء والبابليين واليونانيين والرومان. فيما بعد أُخمدت هذه العقيدة الوثنية البدائية بقيام المسيحية ولكن حين بدأت تظهر خلال القرن الماضي في شتى الأماكن المدارس النقدية المعارضة للإيمان المسيحي، عاد إلى الظهور من مخلفات الماضي هذا المعتقد الخرافي الوثني مُكتسباً حُلة عصرية.

٢- إن إيمان داروين بالنشوء لم ينتج عن استكشافاته، بل إنه آمن إيماناً جازماً بذلك قبل أن يبدأ استقصاءاته الضخمة. وكان يهدف بالأساس من قيامه بهذه الاستكشافات إلى محاربة الإيمان بالخلق. فضلاً عن ذلك، ما من أحد اليوم يؤمن بالنظرية كما اقترحها هو. وهكذا لا تستطيع أن تدّعي أن إيمانه بالنشوء تبرره نظريته (المغلوطة). زد على ذلك أنك تستطيع القول بأن إيمانه بالنشوء كان له ما يبرره إذا ما قورن بالاعتقاد ذاته في يومنا هذا ذلك أن الكثير من الحقائق اليوم التي هي في صراع مع النشوء لم تكن معروفة في أيامه. وحالياً نعرف جيداً توقعات كثيرة كانت قد صيغت اعتماداً على أسس النظرية ولكنها لم تتحقق أبداً.

٣- أضف إلى ما تقدم، عندما تقرأ اليوم كتابات النشوئيين الحديثة تجد أن إيمانه بالنشوء لا يركز على النتائج العلمية، وإنما على قضايا فلسفية وأدبية. البعض يعترف بصراحة أنه حتى لو أثبتت خطأ كل النظريات النشوئية (التي يتعين عليها أن تفسر عملية النشوء) فإنهم لن يترددوا عن الاستمرار بالإيمان في النشوء. هذا يظهر لنا أن هذا الاعتقاد ليس (علمياً) وإنما هو مبني على وجهة نظر خاصة للحياة. العديد من النشوئيين يعترفون علناً بأنهم يؤمنون بالنشوء لسبب بسيط هو أنهم يبنذون الخلق اضطلعت مؤخراً على كتاب من تأليف البروفسور مور Professor more يعدد فيه مجموعة من المعارضات القوية ضد نظريات النشوء. كل حجة فيه تفوق سابقاتها في قوتها. ولكنه في النهاية يقول أن لا يزال يؤمن بالنشوء لأنه يَكُن كراهية شديدة للإمكانية الأخرى الوحيدة: الخلق الإلهي.

٤- إذن فالقول بأن الاعتقاد بالنشوء هو أكثر من الاعتقاد هو حماقة من الدرجة الأولى. كلاهما على ذات الدرجة من (قدم النمط)، كلاهما مؤسسان على وجهة نظر خاصة للحياة. والفارق الأساسي بينهما هو أن: الإيمان بالخلق مؤسس على الإيمان بالله وبالكتاب المقدس. والإيمان بالنشوء مؤسس على نبذ الإيمان بالله وبالكتاب المقدس.

إذن أيهما هو الصحيح- الخلق أم النشوء؟

هذا يعتمد على سؤال آخر: (هل تؤمن بأن الكتاب المقدس هو كلمة الله

المعصومة والموحى بها؟) إذا كنت لا تعتقد ذلك فأنت ترفض حقيقة الخلق كما كشفها لنا الله ولا يتبقى أمامك سوى عقيدة النشوء الوثنية البدائية. لأنه لا إمكانية ثالثة للخيار. وفي أي من الحالين يجب أن تؤمن بشيء إذ أن الإيمان ليس مقصوراً على المتدينين فقط. فإما أن تؤمن بالأولى أو بالضرورة تعتنق الأخرى.

اهتزاز أوراق الشجر

قبل كل شيء تفهم الأمر التالي بوضوح, يمكن اعتبار القول بالخلق ومثيله القول بالنشوء على نفس الدرجة من العلمية أو اللاعلمية. وتفضيل أحدهما يعتمد في المقام الأول على وجهة نظرك إذا كنت قد فهمت هذا, يطفو أمامك على السطح السؤال التالي: أي من هاتين العقيدتين مرتبط بشكل أفضل بالحقائق الواقعية المعروفة لنا؟ لا تحسب أن أي إنسان على وجه البسيطة بعد إعادة نظر دقيقة ومحيدة لكل الحقائق يستطيع أن يجد اختياراً مقبولاً بين أحد الإيمانيين. نحن لسنا حياديين, لأننا إما أن نؤمن بالكتاب المقدس كالكلمة الموحى بها من الله فنؤمن بالخلق أو أننا نرفض الكتاب المقدس ونؤمن بالنشوء.

ومع ذلك, فأنا مستعد أن أعلن لك بأن الحقائق الحالية المعروفة تتفق مع مذهب الخلق أكثر من مذهب النشوء. أقول هذا عن اقتناع تام, بالرغم من أن معظم الباحثين في علم الأحياء يعتقدون أن الحقائق تساند فكرة النشوء. من المضحك أن يحمل الخلق والنشويون الحقائق في جعابهم ورغم ذلك يعتبر كل فريق أن الحقائق تلك تساند وجهة نظره الخاصة. بالإضافة إلى ذلك فمن الممكن أن نشرع بالتورط في نمط خاص للتفكير حتى لا نعود نقدر أن نرى الحقائق التي تناقض ذلك.

دعني أقدم لك مثلاً رواه لي خلقي أميركي وهو الدكتور دونالد تشيتيك Dr. Donald Chittick كان قد استعمله في إحدى المناسبات حين أراد شرح هذه القضية. ويدور النقاش فيه على النحو التالي:

يسأل الدكتور تشيتيك طلابه: (هل تعرفون كيف تنشأ الريح؟) (بالطبع) يجيب أحدهم (تنشأ الريح مرة مع انتقال الهواء من مكان ذي ضغط جوي مرتفع إلى آخر ذي ضغط جوي منخفض). (خطأ) يعترض تشيتيك (أنت لا تتابع التطورات الحديثة لأن هذه هي نظرية من الطراز القديم. لقد اكتشفوا مؤخراً أن أغصان وأوراق الشجر تهتز, ونتيجة لاهتزازها ينتج تيار هوائي وهو ما ندعوه الريح. حاولوا أن تناقضوا هذه النظرية الجديدة) يرتبك الطلاب بينما يعلن شاب سريع الخاطر بينهم (ولكن الريح تتواجد في الصحارى حيث تنعدم الأشجار) فيجيب تشيتيك (هذا رأي ساذج فمثل ذلك لا يحدث. لأن الريح لا بد أن تأتي من مكان حيث تتواجد الأشجار بأوراقها المهتزة) قد يتواجد طالب آخر ممن يستطيعون مناقضة هذه الفكرة بطريقة سليمة ولكن تشيتيك يسكته بإنزال ورقة جديدة رابحة فيخاطبه: (أن السبب الوحيد لحديثك ذي الطابع القديم هو أنه ينفصك الاضطلاع على التطورات الأخيرة. ألا تعرف أن الإنسان وصل إلى القمر؟ واكتشف أنه لا ريح تهب على القمر. لماذا لأنه لا توجد أشجار مهتزة الأوراق هناك).

ثم يتحول تشيبتيك إلى الجدية فيقول: (انظر, هذا بالضبط ما يصنعه النشويون. لديهم نظرية يمكن أن يساندها وفرة من الحقائق. ولكن ذلك لا يبرهن أبداً أنها نظرية سليمة, لأن كل تلك الحقائق تساند نظريتهم بنفس المقدار الذي تساند به (النظرية) المعاكسة ألا وهي الإيمان بالخلق. فلا تسمح لنفسك بأن تُربك بما يسمى بآخر الاكتشافات التي تدعم الاعتقاد بالنشوء, لأن مثل هذا الاستناد لا يبرهن أي شيء.)

تشيبتيك محق فيما يقول مثلاً, صحيح أنه يوجد نموذج بنائي رائع منتشر في كل مملكة الحيوان والنبات وتتجلى روعته وجماله في أنك تستطيع تقسيم مملكة النبات والحيوان بشكل جميل وسليم إلى قبائل, فصائل, رتب, عائلات... إلخ. (أرأيت) يقول النشوي بانتصار. (هذا يتفق تمام الموافقة مع وجهة نظري. بما أن لجميع الكائنات أجداد مشتركين لذلك أتمكن, حتى في أيامنا هذه, أن أميز العلاقة بينهم في التركيب وطريقة المعيشة). فعلاً أن الرجل مصيب. كل الحقائق تتفق مع نظريته بشكل مذهل, ولكن.. هذا لا يبرهن صواب نظريته. لأن هذه العلاقات هي أيضاً في توافق تام مع وجهة نظر الخلقين, ومع تصوير الكتاب المقدس لله القدير الذي خلق العالم حسب خطة متناسقة كاملة الحقائق تتفق مع النظريتين, وبذلك فإننا لم نقرب بعد من الإجابة على السؤال:

أيهما محق إذن؟ هل إن أحد التفسيرين (علمي) أكثر من الآخر؟ الدفاع عن ذلك هو مجرد سفاسف. أن يكون أحد التفسيرين أكثر جاذبية من الآخر هذا لا يعتمد على أسس علمية وإنما بناء على وجهة النظر الشخصية عن الحياة. ومع ذلك يوجد فرق في القيمة العلمية في هذين التفسيرين. فكرة النشوء ستقود الفرد إلى توقع أشكال متوسطة إضافية كثيرة بين مختلف النباتات والحيوانات إلى حد لا يسمح لمختلف المجموعات من نباتية وحيوانية أن تكون مقسمة بهذا الوضوح كما نراها على النحو التي هي عليه الآن.. ولا كنا نجد هذه الكثرة من التشابهات التكوينية اللافتة للنظر بين مختلف المجموعات من الكائنات بالرغم من أنهم يعتبرون استناداً إلى أسس أخرى ذوي قرابة بعيدة جداً. خذ مثلاً: للفقاريات وللأخطبوط عيون شديدة الشبه بينها, هذا هو لغز غامض بالنسبة للنشوي الذي يعتبر هاتين المجموعتين منحدرتين من أصول متباعدة جداً. بالنسبة للخلقي, هذه ليست المشكلة, فهو يعرف أن الله يعطي الحيوانات التي تعيش في ظروف متشابهة- مثل هذا الشبه في بنائها (يلائم أوضاعها) بينما قد تكون هذه الحيوانات شديدة الاختلاف بينها في مظاهر أخرى.

كان هذا مثلاً واضحاً فقط. للحصول على أمثلة أخرى راجع كتاباً أكثر تفصيلاً (انظر القائمة في نهاية الكتاب). أما ما أرمي إليه فهو: لا تتخذ بالقول بأن مشاهدات في الطبيعة لا عد لها تتفق مع مذهب النشوء. هذه لا تعني شيئاً ما دمت لم تتحقق بعد فيما إذا

كانت المشاهدات عينها تتفق تماماً (ولربما أكثر من تلك) مع مبدأ الخلق. وعلى أساس الإثباتات العلمية أنا شخصياً أعتقد بأن الحقائق تتفق أكثر مع مبدأ الخلق.

وبتطور الأمور فالنشوء يشبه بيتاً كبيراً من الكرتون. وعالم الأحياء وعالم الحفريات أو أي خبير في هذا الموضوع يعرف جيداً أين يظهر تخصصه مواطن الضعف في المبدأ النشوئي (والكثيرون يقرون بذلك). ولكنه غير قلق بهذا الشأن لأنه يقول: (البراهين التي حصل عليها زملائي في الأقسام الأخرى قوية الحجة بما فيه الكفاية). وما دام الكل يظنون ذلك فلسوف نحصل على فقاعة صابون عظيمة ينفدون الإثباتات في أحد الاختصاصات بالتعلق بأذيال إثباتات من اختصاصات أخرى. اقطع ذراعاً من جسد تنين النشوء ولسوف تجد نفسك محاطاً بالأذرع الباقية. أدخل ما شئت من الاعتراضات العلمية ولسوف يستنبطون (نظريات مساعدة) بارعة بهدف (شرح) كل الحقائق التي تتناقض مع النظرية لإبعاد المعارضات من وجهها, أو.. يتجاهلون تلك بكل بساطة إلا أن الخطوة الفعالة الوحيدة التي يجب اتخاذها هي: هاجم النشوئية على كل جبهاتها في وقت واحد بسلاح الخلقين. ولكن.. حتى تلك ليست جيدة بدرجة كافية لأن النشوئين كانوا قد أخبرونا مسبقاً بأنهم حتى إذا فجرنا كل نظرياتهم فلسوف يفضلون دوماً المبدأ النشوئي عن الخلق. إن مقتهم الشديد لمبدأ الخلق يصل إلى حد أنهم يفضلون نظرية (اهتزاز أوراق الشجر) في كل وقت...

تجرُّع المر

إذا اعتبرت فكرة النشوء صحيحة, لوجب على العلماء جعلها مقبولة لدينا استناداً إلى إثباتات علمية. وعليهم بذلك إيضاح قضيتين لنا:

- هل هناك ميكانزم أو "خطة عمل" بيولوجية تتطور بها تدريجياً الكائنات البسيطة الدنيا إلى كائنات راقية أكثر تعقيداً؟ إن (خطة عمل) كهذه يجب أن تتبع عملياً علم الوراثة Genetics

- هل تعطينا الحفريات اليوم صورة عن التطور التدريجي عبر ملايين السنين من الكائنات الدنيا إلى الراقية. إن مثل هذه الدراسة للحفريات يجب أن تتبع لعلم الإحاثة Paleontology (دراسة الكائنات المتحجرة).

* علم الإحاثة: علم يبحث في أشكال الحياة في العصور الجيولوجية السالفة كما تمثلها المتحجرات أو المستحاثات الحيوانية والنباتية.

في القرن الأخير بدء العمل في هذه القضايا بروح التفاؤل ظناً بأن الإجابات لتلك القضايا سوف تحل بسرعة. واليوم لدينا الإجابتان وهما في غاية الوضوح... لا ويجب أن أبرهنهما طبعاً, بغض النظر عن مقدار المرارة التي تتسبب للخبير النشوئي عند تجرعها.

١- نعرف اليوم كل أنواع القواعد التي تجتاز خلالها مجموعة سكانية معينة من أحد أنواع الحيوان مثلاً عدداً من التحولات الوراثية خلال أجيال متعاقبة. تتواجد العوامل الوراثية في الكائنات الحية على ما يسمى بالجينات. وهي تراكيب متناهية الدقة موجودة في نوي الخلايا الجسدية والخلايا التناسلية. أمام مختلف أنواع التأثيرات الخارجية تجتاز الجينات المتحكمة مختلف أشكال التحولات الاعتباطية (طفرات Mutations). كنتيجة لذلك تبدأ الجينات بالتصرف على نحو مختلف وعلى الغالب بفعالية أقل أو حتى تتوقف عن العمل كلياً. كائنات ذوات جينات كهذه هي بالنتيجة أقل قدرة على الإبقاء على نفسها, ولذلك تموت في فترة مبكرة أو لا تكون قادرة على التكاثر بشكل كاف.

يدّعي النشوئيون بأن التطور يتم, عندما تنتشأ الطفرات التي تكون موائمة في ظروف معينة فتزود الجسم بإمكانيات أفضل لحماية نفسه. الواقع أن هذا يحدث بالفعل نادراً. فعند تغير الظروف البيئية فإنه قد يؤدي إلى طفرة معينة (أي يحدث تغيير إلى وضع أفضل) وعندئذ ترى أن الكائنات التي لا تمتلك هذه الطفرة الخاصة تختفي تدريجياً من بين المجموعة السكانية. ولكن هذه في منتهى الندرة, وحين تظهر تكون ذات طبيعة مؤقتة.

على العموم هذه تحدث لأن الإنسان أدخل تغييراً جذرياً على البيئة. فضلاً عن ذلك فهي تبرهن فقط أن المجموعات السكانية تستطيع تحمل "تذبذبات" معينة. وليس لهذه أي علاقة على الإطلاق (وأنا أعني هنا بكلمة على الإطلاق) مع موضوعنا كيف أن الكائنات العليا (التي هي أكثر تعقيداً، وذات تركيب أكثر تكاملاً) يمكن أن تتطور من الكائنات الدنيا. لقد اقتنع خبراء علم الوراثة منذ أمد طويل بأن "طرق العمل الوراثية" في الكائنات الحية لا تحاول تغيير المجموعة السكانية بل بالأحرى تحافظ على توازنها وثباتها قدر الإمكان. تحت تأثير التغييرات البيئية. ومن الممكن أن يظهر ضمن نطاق المجموعة السكانية ذاتها كل أشكال التغييرات ولكن هذا شيء يختلف بالمرّة عن التطور السكاني بكامله نحو حلقة أرقى في سلم النشوء.

الأفضل أن تتأكد من أنك فهمت هذا الأمر كما يجب لأنه يوجد مقدار كبير من التضليل في هذا المجال. فالى حد بعيد معظم "البراهين" البيولوجية للتطور الموجودة في الكتب التعليمية تتعلق بتغييرات داخل نطاق المجموعة السكانية. أحياناً ندعو هذه التغييرات "النشوء الصغير Micro Evolution" ولكن هذا التعبير مضلل لأنه بالحقيقة لا ينطوي على شيء من النشوء. إنه مجرد تغيير، اختلاف، تذبذب لا "ترقي". وليس لهذه البراهين البراقة من النشوء الصغير أي ارتباط بموضوعنا. كيف حدث النشوء الكبير – Macro Evolution على الأرض؟ أو "كيف أمكن للثدييات أن تتأصل من الزحافات، والزحافات من الأسماك أو من الأميبا؟ كل ما نعرفه عن علم الوراثة يجعل مثل هذه التطورات، ضئيلة الحدوث، غير ممكنة بالمرّة.

دعني أعطيك مثلاً آخر على هذا النوع من التضليل إذا ذهبت إلى المتحف الأميركي للتاريخ الطبيعي في نيويورك، ستجد بين المعروضات كل سلسلة الخيل المتحجرة مجسدة افتراضاً بأن هذه الأفراس تطورت تدريجياً الواحد من الآخر في مدة مئات الآلاف من السنين. هذه السلسلة تبتدأ بحيوان صغير ذو خمس أصابع يتضاءل تدريجياً حتى تبقى في النهاية الإصبع الوسطى وهي المعروفة بحافر الفرس. لاشك أنك ستقول: هذا برهان رائع على النشوء وسوف تفكر هكذا دائماً لأن "رواية الفرس" هذه هي واحدة من أبرز الشواهد الشائعة في صالح النشوء.

فما هي حقيقة الأمر يا ترى؟ لنفترض أن هذه السلسلة هي حقيقية وأن الخيول الأخيرة تطورت حقيقة من الحصان الأول في السلسلة، فهل استطعنا أن نبرهن النشوء؟ بالتأكيد لا، لأنهم لا يزالون خيولاً - أليس كذلك؟ أن هذه السلسلة تبرهن أن مختلف التغييرات ممكنة في موضوع "الفرس"، ولكنها لا ترى بأن الكائنات العليا تتطور من الكائنات الدنيا. الق نظرة على الأصابع وسرعان ما تلاحظ انحطاطا Degeneration بدل النشوء Evolution. ولكن الأسوأ من هذا كله هو أنه لا يوجد ولا حتى برهان واحد يثبت بأن هذه الخيول قد

تطورت في نفس الترتيب الذي وضعت فيه! أضف إلى ذلك, توجد دلائل تؤكد وجود الخيل في شكلها الحالي في زمن الحصان الأول (الأكثر قدماً) في السلسلة. إن هذه الخيول المتحجرة أحضرت من جهان مختلفة من العالم (ترى هل تطور حقيقة الواحد من الآخر؟) ومن أماكن عمرها النسبي هو غير مؤكد أبداً.

أو ليس خيلاً أن تعرض مثل هذه الأشياء على عامة الناس الذين يخذعون بها فيعتقدون بأن النشوء حقيقي؟ لسوء الحظ لا تكف المتاحف أو الكتب الشعبية عن عرض مثل هذا الهراء. ما رأيك في الصور البارعة التي تصور أناس ما قبل التاريخ في شكل ممسوخ لهم مظهر الإنسان القرد؟ إنه خداع صرف! فمن المستحيل تعيين كيف ظهر شكل الوجه, الشعر, لون الجلد.. إلخ من تبين الجماجم والعظام.

أنت تعرف لوقت طويل اعتبر إنسان نياندرتال كواحدة من أهم الحلقات المفقودة بين القرد والناس. ويظهر في الصور كإنسان – قرد وحشي المظهر – ولكن مع مرور الوقت توصل العلماء إلى نتيجة مذهلة وهي أنه لو شاهدنا رجل نياندرتال في إحدى حونيت السوبر ماركت لما ميزناه عن الآخرين أبداً دعنا نأمل أن معلمك يعرف هذا وأنه لا يصير على تقديم "طبخة بائنة" للآخرين...

٢. من الطبيعي أن يترز أمامنا السؤال التالي وهو "ما الذي تزودنا به الحفريات؟" ستستنتج طبعاً أنني أستطيع تغطية هذه النقاط بطريقة سطحية ومختصرة. هذا لا يهم كثيراً، ففي المدرسة يقولون لك أن النشوء حقيقة. أما ما يسمى "بالإثباتات" المتعلقة فيشار إليها بشكل سطحي ومختصر جداً. وأكون سعيداً لو تتوصل إلى معرفة أن الأمور قد تختلف تماماً عما يدعيه معظم معلمي البيولوجيا والدين.

أنت تعلم أن القشرة الأرضية تتكون من عدد من الطبقات تسمى الستراتا Strata. وهذه تكونت إما بسبب انبعاث الصخور المنصهرة من داخل الأرض (من البراكين مثلاً) تصلبها, أو بسبب الرياح التي تحمل ذرات الرمل والطين وتجمع في مكان ما, أو أن الأنهار الجليدية تدفع الرمل والطيني, والأكثر حدوثاً هو الرمل والطيني مع الحجر الكلسي... إلخ, التي ترسبت في البحار والبحيرات والأنهار. في النوعين الأخيرين من الطبقات نجد بقايا متحجرة لا تعد لنباتات وحيوانات عاشت مرة على وجه البسيطة. الأقسام القاسية فيها بشكل خاص كالقواقع والحراشف والعظام تحجرت بسهولة.

طبيعي أن تكون الطبقات السفلى أقدم عهداً والطبقات العليا أصغر عمراً. ادعاء النشويين هو كما يلي: في الطبقات السفلى (الأكثر قدماً) نجد كائنات بسيطة متحجرة, وعندما تأتي إلى الطبقات العليا (الحديثة) نجد إلى جانب الكائنات الدنيا المتحجرة أخرى علياً أكثر تعقيداً. يمتد عهد الطبقات التي تحتوي على متحجرات إلى فترة تقارب الـ ٦٠٠ مليون سنة

(هكذا يجزمون). وفي تلك المدة نرى كيف أن تاريخ الحياة يبدأ بكائنات بسيطة جداً وكيف أن الكائنات العليا تبدأ تدريجياً بالظهور على امتداد العصور.

رائع, أليس كذلك؟ ألا يكون هذا أفضل برهان على النشوء؟ بالتأكيد... لو أن القصة حقيقية. هذا ما يقصونه عليك بالعادة, وهذا بالضبط هو عين الضلال. على هذه الحالة نستطيع أن نسلم بأنه لا أثر للحقيقة في كل القصة. لا يوجد أي مكان في العالم كله تستطيع أن تجد فيه كل هذه الطبقات مرتبة الواحدة فوق الأخرى في وضع تتواجد معه الكائنات الدنيا في الأعماق, وكلا النوعين من الكائنات العليا قريب من السطح. بالإضافة إلى ذلك لا تتواجد الكائنات البسيطة فقط في طبقة الحفريات التي تعتبر قديمة, بل تم الكشف على أن جميع الفصائل الحيوانية كانت في منطقة Fauna ممثلة فيها. إلا أن الحفريات تمثل الشذوذ الوحيد هنا ولكنها سرعان ما تظهر في الطبقات التالية بدون أي نوع من الأشكال الانتقالية.

من أين تأتي هذه المجموعات المختلفة من الحيوانات؟ أين هم الأجداد المشتركون لتلك الحيوانات كما تفترض النظرية؟ إذا كانت النظرية صحيحة فثمة ثلاث أرباع أو حسب آخرين تسعة أعشار تاريخ الحياة مفقود! إذاً لماذا لا تجد شيئاً من الحفريات من تلك الفترة الشاسعة؟ ترى, ألا يمكن أن لا يكون الأجداد المشتركون قد وجدوا بتاتاً...؟!

افتراض أنك تتوقع من الطبقة القديمة أن تكون دائماً في الأعماق. ولكن الحال ليست تلك أبداً! لأن ترتيب الطبقات قد يختلط بكامله. فالطبقات ذات حفريات الكائنات العليا قد تكون في الأسفل بينما تظهر على السطح طبقات ذوات حفريات الكائنات البسيطة فقط. في بعض الأوضاع تستطيع أن ترى بوضوح أن الطبقات قد انقلبت رأساً على عقب بعد ما يشبه الزلزال. ولكن في الغالب يندم أي أثر لمثل هذه التغييرات الكبيرة في قشرة الأرض. وعلى هذا النحو حقاً ستخلص إلى القول بأن الطبقات كانت قد تكونت في التتابع الذي نجدها فيه. إذاً كيف يجرؤ النشويون من علماء طبقات الأرض على الإعلان ببساطة أن الطبقات منقلبة رأساً على عقب على الرغم من هذا كله؟

إنها قصة مزعجة. كيف يستطيع النشوي تعيين عمر الطبقات؟ هو لا يستطيع أن يبحثه من خلال المادة المكونة لها. وواضح أن تتابع الطبقات لا يفيد أكثر لأن الطبقات المدعوة "حديثة" قد تكون تحت, والطبقات المدعوة "قديمة" قد تكون على السطح. ربما تتوقع منه أن يملك طرقاً خاصة لقياس العمر (وربما تكون قد سمعت عن طرق تعيين العمر بواسطة العناصر المشعة التي سنتطرق إليها فيما بعد) وخطأ آخر ناتج عن تطبيق طرق تعيين العمر على الطبقات إذ لا يعود بالفائدة. كيف يستطيع إذاً أن يفحص طبقة ما إذا كانت أكثر قدماً أو حداثة من الأخرى؟ أنت لن تحزر الجواب. أما هو فيقرر بواسطة الحفريات الموجودة

فيها وخصوصاً ما يسمى بالحفريات الدليل Index-Fossils التي ليست عامة بل هي مميزة (هذا ما يقولوه لنا) "لفترة" جيولوجية خاصة.

أليس هذا لطيفاً؟ إذ حين تظهر الحفريات البسيطة (الناشئة من الكائنات الدنيا) في واحدة من الطبقات فهي طبقة قديمة, أما عندما توجد حفريات معقدة (الناشئة من الكائنات العليا) في إحدى الطبقات تكون تلك طبقة حديثة. قد يكون التعبير عن ذلك في غاية البساطة, ولكنه بالحقيقة لب القضية. بل أن هذا "التفكير الدوراني" المنبوذ معترف به في المقالات الجيولوجية العلمية ويدور على النحو التالي: سؤال "كيف تستطيع أن تبرهن أن الكائنات العليا هي أصغر عمراً من الكائنات الدنيا؟" جواب "لأن الأولى وجدت في الطبقات الحديثة." سؤال "ولكن كيف تعرف أي الطبقات أحدث وأيهما أقدم؟" جواب "يمكن أن نراقب ذلك عن طريق الحفريات الموجودة بها, الكائنات العليا موجودة في الطبقات الحديثة" سؤال "فكيف تبرهن إذاً أن الكائنات العليا هي أحدث من الكائنات الدنيا؟" الجواب "لأن الأولى موجودة في الطبقات الأحدث من الأخرى" سؤال "ولكن كيف تعرف أي طبقة؟" ... أتوقف هنا وقد لاحظت أننا ندور في حلقة مفرغة. وتلك كما ترى تعتبر الإثبات على الحفريات.

وبالإضافة إلى ذلك توجد مشاكل أخرى لا تعد ولا يمكن حلها تتعلق ببرهنة الحفريات. لا تنس بأنه لو كانت الكائنات البسيطة بالحقيقة أول ما ظهر وبعد ملايين السنين جاء دور الكائنات العليا (فرضية مختلف في أمرها كثيراً كما رأينا) لكان قيام تلك لوحدها غير كاف لتكون البرهان بأن الكائنات العليا قد تطورت من الكائنات الدنيا. لكي يجعلها الجيولوجيون مقبولة عليهم أن يبادروا بتقديم الآلاف من الأشكال المتوسطة والانتقالية بين مجموعات الحيوانات المختلفة وبين مجموعات النباتات المختلفة.

قبل حوالي مئة سنة تفاعل العلماء جداً ظانين بأن هذه "الحلقات المفقودة" سوف توجد ولكن نشوئين مشهورين بدأوا بالاعتراف علناً بأن هذه "الحلقات المفقودة" ربما لم توجد أبداً. هذه الفجوات التي لا يمكن تخطيها بين مختلف المجموعات كانت في السابق على نفس الاتساع الذي توجد فيه اليوم, بغض النظر عن مقدار المراجعة الذي يسببه للنشوئين تجربتها.

هل تدل الحفريات على وجود النشوء؟ ربما... لكن عند الذين لديهم مسبقاً إيمان مطلق بالنشوء فقط. أما ذوي الفطنة فلهم معرفة أفضل.

الحنيفة الناقطة

عندما نتحدث عن الحفريات والطبقات فلا بد أن تزعجك مسألة واحدة على الأقل ألا وهي التلاعب بملايين ومليارات السنين.

قد يقول لك معلمك بكل جسارة: "هذه الطبقة عمرها عدة ملايين من السنين وتلك الحفريات عمرها عدة آلاف". فمن أين له أن يعرف ذلك؟ لقد حفظها من كتابات النشويين. من أين حصلوا عليها؟ الواقع أنه فيما مضى ابتدع النشويون جميع هذه الأرقام، بكل بساطة لأنهم احتاجوا إلى هذه الملايين من السنين لدعم ادعائهم أنه بواسطة تحولات تدريجية في منتهى البطء انحدرت كل الكائنات العليا من الأبسط منها وادعوا أن هذا حقيقي رغماً أنه مع مرور الوقت أثبت علماء معروفون في الرياضيات أنه حتى مليون مرة من ملايين السنين التي افترضوها لا تكفي لمثل هذه التحولات.

بعد ذلك ظهرت طرق تعيين العمر بواسطة العناصر المشعة وبدا فجأة أن "برهنة" هذه الملايين من السنين متيسرة. هذه الطرق تعتمد في الأساس على القياسات الكمية للمواد المتحولة أو المتكونة بواسطة ما يسمى "بتفاعلات النشاط الإشعاعي" وقياس السرعة التي تتكون عليها هذه المواد. دعني أقدم لك مثلاً يوضح كيف تعمل جميع تلك المقاييس من حيث المبدأ.

تصور أن لدي حوضاً كبيراً تنقط فيه حنيفة موضوعة فوقه. أبدأ بالقياس فأكتشف أن الحنيفة تقطر لتراً من الماء في الساعة، وأنه يوجد في الحوض مائة لتر من ماء تماماً. كم من الوقت كانت الحنيفة تنقط؟ الجواب ليس صعباً قد تقول هناك مائة لتر من الماء وفي كل ساعة يضاف لتر إلى الحوض، إذاً الحنيفة كانت تنقط مدة ١٠ ساعات فقط! يتعين عليك أن تعرف أن كمية من الماء كانت موجودة في الحوض قبل أن تبدأ الحنيفة بالنقط، وكذلك أن أحدهم صب بعض دلاء من الماء، وثالثاً أن الحنيفة في البداية تقطر بسرعة أكبر مما هي عليه الآن. بالطبع لم يكن لك أن تعرف كل هذه الأشياء، ولكن لو كانت لك دراية بالموضوع لأجبت: "الحنيفة كانت تنقط مائة ساعة، علماً بأن الحوض كان في البداية فارغاً وأنه لم يتدخل أي إنسان مع الحنيفة أو الحوض، وأخيراً أن الحنيفة كانت تنقط في سرعة ثابتة".

هنا تكمن الغلطة التي يرتكبها النشويون. أنهم يدعون القدرة على قياس الطبقات والحفريات، ولكنهم في الحقيقة يقيسون كميات من المادة وسرعات التحول. حتى نستطيع استنتاج العمر من هذه المعلومات يجب أن نتأكد من عدة أمور. قبل كل شيء، ما هي الكميات الأصلية لمختلف المواد (عندما تكونت الصخور والحفريات). ثانياً، بأن العوامل

الخارجية لم تؤثر على سير التفاعلات. وثالثاً، أن سرعة التحول كانت دائماً بنفس المعدل. العقبة الأخرى هي أننا لا نستطيع الكلام بثقة عن أي واحدة من النقاط الثلاث. وإذا كنا غير متأكدين من واحدة من هذه النقاط الثلاث، فبكل بساطة لا نستطيع أن نصرح بأي بيان واضح المعالم عن عمر الصخور.

عادة يدافع النشويون عن أنفسهم بالقول: "صحيح، ولكن عندما نستعمل طرقاً مختلفة كلياً، ونحصل دائماً على نفس النتائج، عندها نتأكد من أننا عينا العمر الصحيح." بالتأكيد، ولكن كم من المرات حصلوا على مثل هذا الاتفاق؟ هناك جمجمة إنسانية مشهورة لأحد أجدادنا الأوائل تحمل الاسم الخلاب زينيانثروبوس Zinjanthropus. لقد "تعين" عمر الجمجمة عن طريق إحدى الطرق ب ١٧٥٠٠٠٠ سنة ولكن الدكتور وايتلو Dr.R.L.Whitelaw لجأ مؤخراً إلى استعمال الكربون المشع على نفس الجمجمة فوجد أن عمرها هو ١٠٠٠٠ سنة فرق شاسع، ألا تعتقد ذلك؟

وتتبدى الأمور على نحو أفضل خلال السنوات القليلة الأخيرة طبقت طريقة تعيين العمر بواسطة الإشعاع على صخور بركانية معروفة بأنها كونت خلال الـ ١٠٠ أو ٢٠٠ سنة الأخيرة أثناء هيجان البراكين. فطلب من علماء ذوي ثقة تعيين "عمر" تلك الصخور. ترى ماذا اكتشفوا؟ أصبت في ظنك: ملايين وملايين السنين. وهذا حدث ليس مرة وإنما مرات مع صخور مماثلة من أنحاء مختلفة من العالم. ألا يمكن أن يكون ثمة خطأ أساسي في طرق تعيين العمر التي قدرت تقديراً رقيقاً، وفي السلم الزمني الجيولوجي ذي الاعتماد المطلق؟

كما سبق وقلت بأنه لا معنى للتصريح بأن الاعتقاد بالنشوء هو "علمي" أكثر من الإيمان بالخلق. لو توجب علي أحدهما أن يكون علمياً أكثر من الآخر لأمكن تحقيق ذلك بطريقة واحدة فقط وهي: إذا بدأت في اختطاط بحث خاص عليك أن تقدم على رسم توقعات حصيفة والتنبؤ بأمور تنتظر أن تجدها على أساس اقتناعك الخاص أو استناداً إلى نظريتك تغدو "مفلسة" أو على الأقل تكون قد تضررت بشكل سيء. هذا ما حدث في فترة السفرات الأولى إلى القمر! فقد أصر النشويون أن عمر القمر هو بلايين السنين وأن خلال تلك السنين تحطمت عليه الأجسام النيزكية (حيث بسبب انعدام الغلاف الجوي للقمر فإن الشهب لا تنفقت أو تحترق قبل اصطدامها بسطحه) وبهذا وجب وجود طبقة سميكة من الغبار على القمر. فلو أخذنا عمره الضخم بعين الاعتبار لبلغ سمكها ستة أقدام. ولذلك زودت مركبة الهبوط بأذرع ارتكاز خاصة قابلة للامتداد. "أيها الزملاء" قال الخلقيون "تستطيعون أن توفرنا عليكم كل تلك الأموال لأن عمر القمر لا يصل إلى ١٠٠٠٠ سنة وبالكاد سيصل سمك الغبار إلى بوصة واحدة". كان هذا تنبؤاً حصيفاً، أليس كذلك؟ إذ سنعرف أيهما الصائب مرة. والجواب معروف لديك، لأنه حين وصل الإنسان لأول مرة على سطح القمر

اضطروا للاعتراف والدهشة كانت تستولي عليهم_ بأن طبقة الغبار التي تغطي سطح القمر لا تبلغ بوصة واحدة...

كان هذا مثلاً واحداً فقط. فهل تستطيع أن تدرك لماذا يجد بعض الناس مسألة الخلق أكثر قبولاً من النشوء؟ أستاذ الفيزياء في جامعة تكساس بروفيسور ث. بارنس Professor Th. Barnes هو أحد أولئك. مؤخراً تناولت الطعام عنده وقد حدثني عن دراسته لمغناطيسية الأرض. أنت تعرف أن للأرض حقلاً مغناطيسياً يجعل إبرة البوصلة تتجه دائماً إلى الشمال. ولكن هل تعلم أن هذه القوى المغناطيسية تضعف ببطء شديد؟ لقد قاس البروفيسور بارنس هذا عملية الضعف هذه بدقة عالية، وحسب عمر الأرض فوجد أنها تستطيع أن تبلغ على أقصى حد ١٠٠٠٠ سنة فلو أن الأرض أقدم من ذلك لكانت مغناطيسيتها في تلك الفترة قوية إلى درجة تجبر الأرض أن تبتعد عن مسارها بسبب قواها المغناطيسية، وعن هذا الموضوع يتحدث بارنس في كتاب خاص.

هذا النوع من المواضيع لم يقدم ولا مرة إلى عامة الناس. جون كيو يقول "على الجمهور أن يحمل فكرة أن كل شيء في ضوء نظرية النشوء هو على ما يرام" فالحقائق إذن مطموسة. ما رأيك مثلاً في هذه الفكرة: النشويون يزعمون أن الديناصور (وهي كما تعرف تلك الحيوانات الضخمة البشعة التي عاشت في فترات ما قبل التاريخ) انقرضت قبل ظهور الإنسان في المشهد بـ ٧٠ مليون سنة (آخرون) يقولون ٦٠ مليون سنة. ولكن افترض أننا اكتشفنا طبقات تحوي على آثار أقدام متحجرة لكل من الديناصور والإنسان. ما قولك؟ افترض أن آثار الأقدام هذه كانت ملازمة الواحدة للأخرى حتى لا يبقى أمامنا أي شك بأنها نشأ في وقت واحد. ألن نكون مجبرين عندئذ على الإقرار بأن الإنسان والديناصور عاشا في ذات الوقت؟

حسناً، هذا هو بالضبط ما وجد في الصخور الطباشيرية على ضفاف نهر البايوكسي Paluxy بالقرب من قرية جلن روز Glen-Rose في تكساس! درس جيولوجيون مهرة بدقة آثار الأقدام هذه بطرق خاصة ليتأكدوا من أنها بالحقيقة آثار أقدام الإنسان والديناصور وأنها ليست نقوش. هل تحققت مما يعنيه هذا الاكتشاف (وهو نقطة واحدة فقط من أخرى عديدة)؟ " إذا كان ذلك صحيحاً" كتب أحد الجيولوجيين بأن الإنسان والديناصور عاشا في وقت واحد، عندئذ تنهار الجيولوجيا التاريخية برمتها، ولعل الجيولوجيين يغدون معها سائقي عربات بضاعة".

كيف يتصرف الجيولوجيون النشويون؟ أنهم إما أن يثوروا غاضبين فيصرخون: "خداع، كذب" أو أنهم يلجأون إلى اطروحات علمية لا يفهمها أي إنسان، ولكن يفترض بها أن

تظهر أنهم في كل الأحوال على حق, وإلا فإنهم يكتفون بهز الأكتاف في حركة استعلاء,
وبكل بساطة ينكرون الموضوع بكامله.

طبخة بائنة

دعنا نأمل أن معلمك في البيولوجيا يتمشى مع العصر ويضطلع على آخر ما يظهر في حقله, ولنأمل بأن من يقدمون لك التربية الدينية قد قرأوا أكثر من الكتيبات أو المجالات الشعبية والمثيرة عن النشوء. وإلا فمن المرجح أن معلمك سيقومون على الرغم من كل نواياهم الحسنة بتقديم أطباق عديدة من طبخة بائنة مضي على رفض المختصين لها عهداً طويلاً.

هل لا يزال معلمك يحدثك عن إنسان نياندرثال Neanderthal وعن إنسان جاوه المتحجر Pithecnthropus بأنهم أشكال متوسطة بين القردة والإنسان؟ هذه كلها أمست طبخة بائنة. من المتعارف عليها الآن أن هذين الإنسانين ليسا سوى رجلين عاديين, حتى وإن بدا بمظهر غريب بعض الشيء إلا أنهما ليسا أغرب من بعض الأشخاص الذين يتجولون من حولنا اليوم. علاوة على ذلك فنحن نعرف أن أناساً في نفس مظهرنا عاشوا مثل هذين الرجلين من عصور ما قبل التاريخ.

هل مازال معلمك يقص عليك تلك القصة القديمة عن التطور الجنيني للإنسان (تطوره قبل الولادة) بأنها نوع من مراجعة تاريخية النشوئي؟ إنها طبخة بائنة مرفوضة منذ عهد طويل.

ليس من إنسان سليم التفكير يصدق هذه الأمور بعد. هل قص عليك معلمك مثلاً, أن الإنسان قبل أن يولد, في مرحلة مبكرة معينة تكون له فتحات خيشومية وذيل مما يبرهن أنه تطور من حيوانات ذات ذيل وخياشم؟ أنها ليست سوى طبخة بائنة. فهذه ليست ولا حتى خياشم وإنما أخاديد ضرورية ومهمة ينمو منها. فيما بعد أشكال مختلفة من الأعضاء. علاوة على ذلك فقد سبق وحدثتك بأن التلاؤم لا يمكن أن يكون أبأ برهاناً على الترقى.

هل لا يزال معلمك يخبرك بأن الإنسان يملك العديد من الأعضاء البدائية والتي لا تؤدي بعد أي وظيفة. أعضاء – يفترض بأنها مخلفات الأجداد البعيدة من الحيوانات والتي قدرت على الاستفادة منها؟ هذا ما كان الناس يعتقدون به ذات مرة حين كانت وظائف الكثير من الأعضاء (مثل الزائدة الدودية, الغدة التيمية, العصص) لا تزال مجهولة. ولكننا اليوم نعرف هذه الوظائف أفضل بكثير. ونعرف على سبيل المثال أن الغدة التيمية هي عضو حيوي جداً.

هل مازال معلمك يقص عليك بأنها قضية بضع سنين حتى يتمكن خلالها العلماء من إنتاج الخلية الحية؟ إنها طبخة بائنة. لقد اعتاد الناس التفكير على ذلك النحو حين اعتقدوا بأن الخلايا ليست سوى قطرات ماء تحتوي على مواد معينة داخلها. مع مرور الوقت اكتسبنا

بعض المعرفة عن التركيب المعقد المدهش للخلية. لقد حسب علماء الرياضيات بأن التريلايين^١ من السنين لن تكفي لأن تجعل ممكناً التصور بأن شيئاً على هذا التنسيق والروعة كان حصيلة ما هو بالحقيقة الصدفة الخالصة. وسوف يعتبر صنع الخلية الحية عن المواد اللاحية أعظم إجازاً من انحدار الإنسان من تلك الخلية الوحيدة! لا تسمح لهم بأن يخدعوك بأساطير عن التجارب والاكتشافات الحديثة (والتي هي حالياً خيالية). إن النتائج التي أحرزت حتى الآن تشبه شخصاً استطاع أخيراً بعد جهد جهيد أن يصنع قرميدة (قالب من الطوب) وهو يعتقد الآن أنه يستطيع بدون أية صعوبات أن يبني قصرأ. ومع ذلك افترض أن مئات من الرجال المهرة بمساعدة أحدث وأثمن الأجهزة توصلوا إلى بناء خلية حية فماذا سيبرهن ذلك؟ بكل تأكيد، ليس أن الحياة نشأت من ذاتها بمحض الصدفة الخالصة من المادة اللاحية، بل بالأحرى ستشير إلى أن الحياة يمكن أن تنشأ فقط بواسطة عقل ذي ذكاء رفيع وقوة خارقة- ذاك هو الله نفسه!

^١ -مفردها تريليون وهو رقم مؤلف من واحد وإلى يمينه ١٨ صفراً.

الكتاب المقدس يجيب

أمر طبيعي أن تبدأ بالشك في حقيقة تلك الطبقات والحفريات. ولعلك تتساءل: كيف يتصور الخلقيون (أي الذين يؤمنون بالخلق فقط) ظهور الطبقات في الوجود إن لم يكن هناك داع للإفتراس بأنها نشأت على مدى ملايين السنين؟

إنه سؤال وجيه! يعتقد الخلقيون بأن النشويين قد انحرفوا عن الطريق الصحيح. فهل تريد تفسيراً لذلك؟ دعهم إذن يأتون لنا بإجابة أفضل! إنها مبنية على الكتاب المقدس. وفي ذات الوقت مستساغة علمياً. الكتاب المقدس نفسه ليس كتاباً علمياً، هذا واضح. ولكن هذا لا يعني (كما يستنتج البعض بشكل متهور أحمق) أن الكتاب المقدس بالتالي لا يُعد واقعياً حين نصل إلى أصل الأشياء مثلاً. ما يقوله الله في كلمته هو صحيح حتى وإن لم يكن موضوعاً في صيغة عصرية تنفق مع أسلوب التعبير في القرن العشرين.

يقول الكتاب المقدس مثلاً على الصفحة الأولى منه بأن الله خلق النبات والحيوان "كجنسه". من النظرة الأولى قد لا يكون هذا التعبير واضحاً من حيث المعنى. ولكنه في لغة الكتاب المقدس الأصلية يعني أن الله خلقهم "في أجناسهم وأشكالهم المختلفة". الله لم يخلق ذلك في عملية نشوية وإنما خلقه في ذات الوقت في عدة "اشكال" تقف جنباً إلى جنب مع بعضها. ويستطيع البيولوجيون أن يُقدروا مدى شمول مفهوم "الشكل". على أي حال ففي معظم الظروف هي أوسع من مفهوم "النوع" التي يشير إليها البيولوجيون. "الكلب" هو نوع بيولوجي نستطيع ضمن نطاقه التمييز بين سلالات لا تحصى. ولكن يمكن تهجين الكلب مع نوع "الذئب". وهذه المجموعة لا تمتد أكثر لأنه لا يمكن تهجين الكلاب والذئاب مع أنواع أخرى قريبة. الله خلق عدداً ضخماً من الأشكال التي يمكن تمييز الواحد منها عن الآخر بوضوح لأنها تظهر فروقاً خارجية كبيرة، ولا يمكن تهجين الواحد منها مع الآخر. وهذا بالضبط ما أثبتته علم الأحياء، إذ أن الكائنات قد تتنوع إلى ما لانهاية ضمن نطاق "شكل" كهذا. ولربما يستطيع هنا ذوي المشاتل الزراعية أو مربو الماشية مد يد المساعدة من خلال التهجين الموجه ولكنهم لا يستطيعون تعدي النطاق الذي فرضه الله على هذه المجموعات.

لن أطيل عليك الشرح في هذا الكتيب الصغير حول ما يقوله سفر التكوين في الإصحاح الأول والإصحاح الثاني عن الخلق، لأنك تستطيع دراسته في كتابي الذي يعالج قصة الخلق بإسهاب وهو "ملاحظات حول الإصحاح الأول من سفر التكوين" أما في كتاب "سوبرمان العملية" فستجد الكثير عن النشوء، وخصوصاً عن النشوء المزعوم للإنسان بينما تجدني هنا مهتماً بالإجابة على السؤال: بماذا يجب أن تؤمن، أبالخلق أم بالنشوء؟ أما وقد رأينا أن لا خيار أمامنا سوى الإيمان بأن الله خلق كل الأشياء، أريد أن ألفت انتباهك إلى ثلاث

حقائق هامة كتابية (أي الكتاب المقدس). وهذه الحقائق تساعدك ولو قليلاً في فهم الطبيعة كما نراها من حولنا.

أولاً، كنت قد ذكرت بأن الكتاب المقدس يُعلمنا أن الله خلق عدداً من الأشكال المتميزة من النبات والحيوان، وأن الروابط الموجودة بين هذه الأشكال يمكن أن تُلاحظ في كل مكان في الطبيعة.

الحقيقة الكبرى الثانية لا نجدتها في قصة الخلق بل في الإصحاح الثالث من سفر التكوين، أنها قصة سقوط الإنسان. أنت تعلم أن آدم وحواء، أول زوجين بشريين كانا غير طائعين لله فسقطا بالخطية. ويا للخسارة! لأن نتائج ذلك السقوط كانت مروعة، ليس فقط لنفسيهما بل وللخليفة بكاملها. فقد ظهر الهدم والانحلال في كل مكان. ويعرض الرسول بولس القضية على النحو التالي: "إذ أخضعت الخليفة للبطل.. أن كل الخليفة تنن وتتمخض معاً إلى الآن". (الرسالة إلى أهل رومية الإصحاح ٨ والأعداد ٢٠ و ٢٢) تستطيع أن تشاهد ذلك في كل مكان حولك. الكون كله يشبه ساعة منبه عملاقة عبثت وتفرغ ببطء. الإنسان أو الحيوان (إذا لم يموت في حادث) يموت موتاً محتماً وتتحلل جثته. كواكب السماء (بما فيها شمسناء) تحترق بثبات وبطء مثل الشموع. أحد قوانين الفيزياء الأساسية يصف هذا الوضع على النحو التالي: في كل مكان في الطبيعة نلاحظ ميل "النظام" إلى التحول التدريجي نحو "الفوضى". الإنسان (والله) يستطيع أن يحدث نظاماً ما في ظرف خاص. ولكن حين نترك الأمور وشأنها فإنها تدبّل، ثم تضعف ثم تفسد ثم تبلي. وكل من يدرس الطبيعة يكتشف صدق هذا القانون. ولكن ماذا يقول النشويون؟ إنهم يدعون أن النشوء ظهر خلال البلايين من السنين بطريق الصدفة وعنه نتج دائماً ازدياد حالة "النظام"، وأن أشكالاً أكثر تعقيداً وأرقى من سابقتها ظهرت خلال حالة من الفوضى. لكن عملياً: هذا مجرد هراء. فتكونها غير ممكن. ولا يوجد عالم أحياء واحد لا يخفي ارتباكهم أمام هذه المشكلة التي لا تحل. من ناحية ثانية فإن في الكتاب المقدس الوضوح الكافي فإن الله خلق العالم على أفضل وأكمل وجه، ولكن منذ سقوط الإنسان دخل العالم تحت حكم الموت والانحلال والهدم. فليس النشوء (أو التطور) هو القائم بل الانحطاط (أو التأخر).

الكتاب المقدس يعلمنا نقطة ثالثة في منتهى الأهمية بالنسبة لموضوعنا. فنقرأ في سفر التكوين من الإصحاح السادس إلى الإصحاح الثامن أنه قضي ذات مرة على الجنس البشري، بل وعلى الأرض كلها بواسطة "الطوفان" هذا لم يكن مجرد طوفان جديد! اقرأ النص كله وسوف ترى، مثلاً أن كل القشرة الأرضية تشققت ونتيجة لذلك فإن سطح الأرض بكامله تحرك بعنف. إذا كنت تصدق الله في كلمته وفهمت بأنه دمر الأرض بتلك الدرجة الواسعة فحاول أن تسأل الجيولوجيين عن نتائج طوفان مثل ذاك الموصوف في الكتاب المقدس.

علماء خلقيون في الجيولوجيا والفيزياء كتبوا الكثير عن هذا الموضوع، وشددوا على أن مثل هذا الطوفان الذي جعل سطح الأرض يُخَضَّ (يهتز بعنف)، لا بد وأن رافقه أيضاً أمواج مد ضخمة مع تكوين الأنهار الجليدية في مثل هذا الطوفان، لا بد وأن تختلط (المواد المختضة) فيه والتي تترسب ببطء مع بقايا الكائنات الميتة وخصوصاً البسيطة منها والتي تمتلك قليلاً من القدرة على الصمود في وجه التيار.

يا للبساطة التي حللنا بها تلك القضايا! الآن نحن ندرك السبب في أن ما يسمى بأقدم الطبقات المحتوية على حفريات والتي هي مليئة بالحفريات الممثلة تقريباً لكل فصائل المملكة الحيوانية قد توجد مباشرة فوق طبقة سفلية مجردة كلياً عن الحفريات.

الآن نستطيع أن ندرك أيضاً لماذا نلتقي عمداً بالحيوانات العليا والتي تتقن السباحة في الطبقات العليا وحيوانات اليايسة في الطبقات العليا النهائية. الشواذ عن هذه القاعدة (ويضمنها الطبقات المعكوسة ظاهرياً التي تحدثنا عنها قبلاً) هي أسهل بكثير للفهم الآن من ازدراد النشوء فيما لو كان قد حدث فعلاً.

الآن بعد أن بدأنا نطلع على أمر الطوفان، نستطيع أن ندرك بسهولة السبب في تلك الكثرة من الحفريات. في الأحوال العادية لا تتكون المتحجرات إطلاقاً بينما تنشأ على نحو استثنائي وبسهولة في المياه الجارية إذ تتغذى سريعاً بطبقة من المواد الصلبة. وهذا عين ما نتوقعه من طوفان غامر.

الآن نستطيع أن ندرك أيضاً السبب في اكتشاف قبور جماعية هائلة تحتوي على مئات الآلاف من الحيوانات المتحجرة متكدة فوق بعضها في مناطق متعددة من العالم. هذه الحيوانات هربت خائفة من الموت أمام المياه المتعالية التي ما لبثت أن غمرتها.

الآن ندرك على نحو مباشر سبب وجود أعداد هائلة من الماموث في ثلوج سيبيريا. لقد تغطوا فجأة بالمياه المتجمدة حتى أن الأكل لا يزال في أفواه بعضهم، ولحومهم لم يعيب بها العفن.

مبدئياً يتشابه النشويون والخلقيون في تفكيرهم عن تكوين الطبقات. الأولون يعتقدون بأن العملية احتاجت إلى ملايين السنين بينما يؤمن الآخرون بأن معظم الطبقات تكونت في سنوات قليلة، أي أن الطبقات تراكتت سريعاً الواحدة فوق الأخرى نتيجة لحركات المد والجزر الهائلة ولكنها احتاجت بعد ذلك لعدد من السنين قبل أن تتحجر.

من المهم جداً أن نطلع على التأكيدات المتكررة لعلماء الآثار الخلقيين إذ يؤكدون المرة تلو الأخرى أنه عند تكسد الطبقات فوق بعضها، فالجائز أن لا تكون الطبقات السفلى قد تحجرت بعد. أما بموجب الفكر النشوئي فإنه إذا كانت ثمة طبقة حديثة تحتاج إلى ملايين

السنين حتى تتكون فوق أخرى قائمة، فمن الطبيعي أن تكون الطبقة السابقة قد تحجرت قبل الحديثة بكثير. بينما يؤكد الخلقيون مثلاً أن الكشف عن جذوع أشجار متحجرة مختزقة عدداً من الطبقات يبرهن بكل جلاء أن هذه الطبقات كانت قد تكونت في أمد قصير الواحدة تلو الأخرى، عندما لم يكن أي منها قد تحجر بعد.

مثال آخر هو الكانيون العظيم المشهور في الولايات المتحدة Grand Canyon.

الذي يبين وضع الطبقات واحدة فوق الأخرى لأن نهر "كولورادو" المتعرج حفر الأخاديد فيها. وفي كل مكان هناك تجد يافطات تقص على السائح كم من الملايين من السنين احتاج تكون كل طبقة على انفراد. ألا أن ذلك في الواقع غير ممكن! مجرد نظرة إلى ماصنعه النهر. لقد حفر أخاديد عميقة بحسب تعرجه (راسماً بعض المنعطفات) وهذا أدى إلى تآكل ضفتيه على الجنبين. على ضوء على الفيزياء يستطيع النهر أن يحدث كلا الشئيين في آن واحد إذا كانت الطبقات طرية فقط. وأثناء الطوفان تراكمت الطبقات الطرية فوق بعضها بسرعة. وبعد فترة وجيزة حفر النهر مجراه فيها. أما تلك الطبقات فقد تحجرت تدريجياً في وقت متأخر فقط.

لا تدعهم يقولون لك بأن ملايين السنين لزمت لتكوين المعادن (الفحم الحجري، النفط) مع أنها القضية الأساسية في كثير من المرات. في المعامل استطاع الإنسان تكوينها اصطناعياً ونعرف اليوم أن تكوين المعادن يتم في أيام قليلة بل حتى خلال ساعات بينما تقول الافتراضات القديمة أنها احتاجت إلى ملايين السنين للتكون. في كتيب صغير كهذا لا أستطيع بالطبع أن أذكر كل الكتب والمقالات التي تجد بها هذه المواد (بالرغم من أن البعض سيظن أن هذه هي آرائي الشخصية حين يقرأ هذا الكتيب). ولا أجد حرجاً لو امتنعت عن تقديم مثل هذه القائمة لأن أغلبية كتب التدريس والمعلمين يكتفون بعدد صغير من "البراهين" على النشوء يقل بكثير عما قدمت هنا من براهين مضادة. ومع ذلك ففي نهاية هذا الكتيب سأقدم قائمة قصيرة من الكتب التي تستطيع أن تفيدك أكثر.

وماذا بعد؟

ها قد اطلعت على الوضع كما هو ثمة أناس يؤمنون مقدماً بالنشوء (عادة لأنهم يمتقنون فكرة الخلق) ويرفقون بين الحقائق العلمية وتلك العقيدة. هناك أيضاً أناس يؤمنون بالله وبكلمته ويفسحون مجالاً للحقائق في عقيدتهم. لذا فإن الآخرين أكثر نجاحاً في محاولتهم من الأولين لأنهم يتشبهون بالحقائق ويقدمون تفسيراً أفضل لها. ومع أن تفسير النشويين يطنطن من حولهم في كل جانب... إلا أنهم لا يعيرونه أنناً صاغية! في المسيرة العامة للعلوم تستطيع دوماً تبديل أي نظرية بأخرى أفضل منها. ولكن النشويين لا يستطيعون فعل ذلك، لأنه لا يهمهم كم من الحقائق يناقض نظريتهم ولأنه لا خيار أمامهم سوى "تفسير رافض لها" أو تجاهلها كلية. المبدأ ذاته لا يمكن أن يزول أبداً لأنه ليس من آخر يحتل مكانه سوى الإيمان بالله الذي خلق كل الأشياء. أما أولئك الذين لا يريدون....!

وماذا عنك. ماذا أنت فاعل؟ هل تنوي دراسة أكبر عدد ممكن من الحقائق بدون تحامل وأن تقرأ قدر الإمكان كتباً للنشويين والخلقيين حتى تستطيع آخر الأمر اختيار التفسير الأصح من الناحية العلمية؟

انس ذلك! لأنك في النهاية ستختار إما الخلق أو النشوء ليس على أساس الإثباتات العلمية بل على أساس الإيمان. عندما نطلب وجهة نظر أحدهم عن التفسيرات العلمية، لا يستطيع أياً كان الاختيار بدون تحيز من خلال التفسيرات العلمية المختلفة. وسوف يقول: "لقد وجدت أن الإثباتات العلمية للخلقيين (أو النشويين) أفضل" لماذا؟ لأنه يعتقد بالخلق (أو بالنشوء).

في إحدى الفترات كان الاعتقاد بأن العلماء يستطيعون تزويد أنفسهم بكل الحقائق فإذا درستها ستصل إلى نظريات علمية بلا تحيز. ولكن التجربة أثبتت أن الحال ليست كذلك. لو أن الخلقيين قالوا مثل هذا الأمر لما كانوا قد صدقوا، ولكن واحداً من أعظم الفلاسفة المعاصرين وهو كارل بوبر Karl Popper قال الشيء ذاته. فقد أكد على مدى عشرات السنين بأننا لا نجمع بدون تحيز بتاتاً. فنحن نجمع تلك الحقائق التي تختص وتساند الأفكار الموجودة في عقولنا، ونفسرها حسب الإمكان بالتوافق مع تلك الأفكار. وعاد بوبر إلى التأكيد عدة مرات بأن الحقائق الجديدة التي تتفق مع نظرية خاصة أو التي تكيف لتتلاءم معها (كما يفعل النشويين عادة) لا تبرهن أبداً أن النظرية صحيحة. لأن الحقائق عينها قد تبرهن بذات المقدار نظرية معاكسة تماماً (كالقول بالخلق في قصتنا).

في البداية اعتقد الناس أن بوبر قد خرج عن مبادئه الأساسية ولكن الناس يقرون الآن بأنه على صواب. هذا الرجل يستحق تمثالاً يخلده. وقد قلده البريطانيون وسام الفروسية تكريماً له. احتفظ بما يلي في ذاكرتك؟ النشويين ليسوا أكثر موضوعية أو أكثر علمية من

الخليين. كلاهما يبدأ.... بالاعتقاد! لا تقل لي أنك تفكر بأنه عن طريق البحث غير المتحيز تستطيع أن تعين كيف ظهر العالم- لا تستطيع أبداً على الإطلاق! "بالإيمان نفهم أن العالمين أتقنت بكلمة الله حتى لم يتكون ما يرى مما هو ظاهر" (الرسالة إلى العبرانيين من العهد الجديد، إصحاح ١١ والعدد ٣).

ما هو الإيمان المقصود في عبرانيين!!؟ هل هو من قبيل هذا الجواب: "أنا لا أعرف كنهه، ولكنني أؤمن به"؟ بالتأكيد لا إنه ذلك الإيمان الذي من خلاله أناس "قهروا ممالك، صنعوا برأ، نالوا مواعيد، سدوا أفواه أسود" (عبرانيين ١١: ٣٣ و ٣٤) هنا تجد الإيمان "العلم" ليس هو بالضرورة المعرفة الحقيقية، وما يمكن قوله هو: "في الغالب يجب أن يحدث على هذا النحو". ولكن الإيمان في الكتاب المقدس لا يعرف بهذا الشكل بل أن "الإيمان هو الثقة بما يرجى، والإيقان بأمور لا ترى" (عبرانيين ١١ عدد ١).

كيف يمكن ذلك؟ لأن الإيمان المسيحي لا يعتمد على الحجج الإنسانية، بل على كلمة الله الموحى بها. هل وجد أحد حين ظهر العالم للوجود؟ الله فقط كان موجوداً عندئذ وخالق العالمين هو مؤلف الكتاب المقدس والكتاب المقدس يقول أشياء أخرى كثيرة عن الإيمان. "بدون إيمان لا يمكن إرضاءه (أي الله) لأنه يجب أن الذي يأتي إلى الله يؤمن بأنه موجود وأنه يجازي الذين يطلبونه" (عبرانيين ١١ عدد ٦). الواقع أن الكتاب يخطو بنا خطوة أخرى إلى الأمام فالإيمان لا يعلمنا فقط أصل الخليقة، بل أن الإيمان يجعلنا فقط أصل الخليقة، بل أن الإيمان يجعلنا نعرف الخالق فهل أنت ذلك "الباحث" الجاد؟ هل تبحث عن الحق المتعلق بالنشوء أو الخلق، أو أنك بدأت فعلاً البحث الجدي عن الخالق نفسه؟

هل تعرف سبب تلك الصعوبة عند البحث عن الله وفي إيجاده؟ اسمع إذن ما يقوله اشعيا النبي: أثمكم صارت فاصلة بينكم وبين إلهكم وخطاياكم سترت وجهه عنكم حتى لا يسمع" (اشعيا ٥٩ عدد ٢) هل تساءلت لماذا يؤمن الكثيرون بالنشوء؟ طبعاً لأن معظمهم لا يفكرون على نحو أفضل. وأحياناً يعترف كبار المؤيدين بأن السبب هو أنهم يفتنون الخالق والكتاب المقدس. الإنسان ليس باحثاً جاداً عن الله، بل هو عدو الله. إنه يكره الله لأنه يعلم أن الله يجازي الذين يطلبونه (كما كنا قد قرأنا) إلا أنه سيعاقب أيضاً أولئك الذين يكرهونه، والذين يديرون له ظهورهم، والذين يسيرون بحسب أهوائهم. فالخطية في حقيقة أمرها هي: أن تسير بحسب طريقتك الخاصة، أن تعمل رغبتك الذاتية، أن لا تهتم بإلهك الذي هو خالقك وديانك (إن لم تتغير).

بموجب النشوءيون، الإنسان هو حيوان عاقل! ارتقى بانتصار من الحضيض إلى الذروة وما زال يعلو ويرتقي. ولكن هذا بموجب الكتاب المقدس هو الطريق المضادة عينها. الله خلق الإنسان كاملاً، ولكن بعصيانه الكريه سقط بالخطية. ومنذ ذلك الوقت إلى الآن لم يخط

درجات العلاء بل السقوط. وبعد انتهاء هذه المرحلة لن يظهر السوبرمان في سلم الرقي بل العقاب الأبدي بعيداً عن نعمة الله.

والآن، إذا كان لا يزال بين هذه الجموع الإنسانية بعض الذين يبحثون عن الحقيقة، أفراداً يطلبون الله عن عزم، فهو يجازيهم. لأنه هو بنفسه يجتذب الناس إليه، يغير مواقفهم المعادية له، يجدد حياتهم ويخلصهم من خطاياهم. وهذا الكتيب الذي بين يديك هو وسيلة من الوسائل التي يجتذبك الله بواسطتها إليه في هذه اللحظة بالذات. الله يقول "اطلبوني فتحيا" (العهد القديم- سفر عاموس ٥ عدد٤). فهل تختار إتباعه أم أنك تختار الأكثرية التي هي في طريقها للعقاب الأبدي؟ تذكر أن الأكثرية ليست هي المحقة دائماً، وهذا ينطبق حتى في تاريخ العلوم. لا تتخدع بالأرقام. الطالبون الله هم قلة ولكنهم حاصلون على عطية لا تجد عند النشويين أي فكرة عنها! هذه العطية تتضمن كل شيء يهبه الله لك في ابنه يسوع المسيح، الذي بواسطته خلق العالم والذي به يستطيع أن يخلص من كل الخطايا جميع الذين يأتون إليه معترفين بخطاياهم. عندما يلمس هؤلاء الطالبون الله، المملوؤون عزمًا، نتائج العمل الخلاصي الرائعة، التي أكملها المسيح على صليب الجلجثة فإن حياتهم تتغير بشكل جذري. لا توجد حياة أسعد من العيش مع الله الذي يصير لك مخلصاً وسيداً إذا وضعت ثقتك فيه.

أمل بكل إخلاص أن لا تضع هذا الكتيب من يدك إلا وعندك التصميم الصادق على البدء في قراءة الكتاب المقدس. تستطيع اقتناء الكتاب المقدس من مصادر عديدة بسعر زهيد أو حتى مجاناً. ابحث فيه عن الله وعن ابنه. صل، اجث على ركبتك واعترف له بأنك إلى الآن أدرت له ظهرك، وبأنك كنت تسير حسب طريقك الذاتية (التي هي طريق الخطية) بدون أن تعره أي اهتمام. اعترف له بكل بساطة أنك بحاجة للخلاص وإلا فإنك هالك إلى الأبد. اقبل صديقي الهبة العظيمة التي يقدمها الله لكل الذين يأتون إليه بأمانة وإخلاص تلك الهبة هي ابنه. وبواسطة ابن الله خلقت كل الأشياء وكل شيء في الوجود تحت إمرته. ولكن هذا الابن صار إنساناً لكن يعاني ويموت عن جميع من كان مصيرهم الهلاك ولكنهم رجعوا وصرخوا إلى الله من أجل خلاصهم. إن الله لا يرفض أي إنسان يطلبه بل يقبله ويباركه ويهبه السعادة إلى الأبد. أفلا ترغب في الحصول على ذلك نصيباً لك؟

ملحق:

داروين... المؤمن

قد يعجب كثيرون من دارسي نظرية التطور، إذا ما عرفوا أن داروين في ختام حياته نبذ هذه النظرية ورجع إلى الإيمان بالكتاب المقدس. وكثيرون عندما يقتربون من ختام رحلة الحياة، وبالتالي من مواجهة الله والأبدية، يندمون على مبادئ تمسكوا بها وتصرفات كانت لهم. وهكذا كان داروين. إن قصة خاتمة حياته ترويها لنا امرأة فاضلة مؤمنة هي السيدة هوب من نورثفيلد في إنجلترا. وقد لازمته كثيراً في إبان مرضه الأخير. وقد كتبت هذه القصة بخط يدها، وهي علاوة على أنها جذابة، فهي أيضاً تحمل طاقة نورانية. وها هي القصة كما سطرتهَا كاتبتها:

"كان ذلك في يوم من أيام الخريف الصافية التي نستمتع بها في إنجلترا عندما دعيت بعد الظهر لكي أدخل إلى حجرة العالم الكبير تشارلس داروين، لقد ألزمه المرض فراشه فترة قبل وفاته، وكنت أشعر كلما تطلعت إليه، أن طلعه المهيبه تعكس صورة فخمة لأكاديمية العلوم الملكية عندنا. لكن لم يحدث أن أحسست بعمق هذا الشعور بقوة قبل هذه المرة في عصر ذلك اليوم.

كان جالساً في سريره يرتدي جلباب نوم مطرز أرجواني اللون ويستند بظهره إلى بعض الوسائد ويرمي ببصره من خلال النافذة إلى منظر الغابة الممتدة مسافة بعيدة وإلى حقول القمح التي تنمو فيها أشعة الشمس الغاربة وخيل إليّ وأنا أدخل الحجرة أن السعادة تغمر تلك الطلعة المهيبه وملامح ذلك الوجه الوقور.

ولما دخلت لَوْح بيده تجاه النافذة إلى ذلك المنظر الرائع بينما كان في يده الأخرى الكتاب المقدس مفتوحاً والذي كان يحرص دائماً على قراءته طوال تلك الفترة. وقلت له وأنا أتخذ مجلسي على كرسي بجانب السرير "ماذا تقرأ الآن؟ فقال العبرانيين- لم أزل أقرأ رسالة العبرانيين وأنا أسميها السفر الملكي" ثم مر بأصبعه على بعض السطور وعلق عليها ببعض الملاحظات.

فألمحتُ إلى الأفكار والتفسيرات القوية التي طرحها كثيرون حول تاريخ الخليقة وعظمتها وما ذكر عنها في الإصحاحات الأولى من سفر التكوين. وحينئذٍ بدت عليه إمارات الأسف وعدم الارتياح وفرك أصابعه بعصبية وقال، وقد غطت وجهه مسحة من الحزن: "كنت شاباً له أفكار غير كاملة التكوين وغير واضحة المعالم وقد طرحت مسائل وآراءه وقلبتُ الفكر كثيراً في كل شيء تقريباً. وكانت دهشتي أن تلك الأفكار والآراء سرت كما تسري النار في الهشيم واتخذ الناس منها ديناً".

ثم سكت، وبعد كلمات قليلة عن "قداسة الله" وعن "عظمة الكتاب المقدس" وكانت يده تحمل بمنتهى العناية، قال: "لي في الحديقة استراحة" تتسع لنحو ثلاثين شخصاً، وأشار عليها بأصبعه ثم قال "أود كثيراً أن تتكلمي معهم وأنا أعرف أنكِ تقرأين الكتاب المقدس مع أهالي القرى المجاورة. وبعد ظهر الغد أحب أن يذهب إلى هناك خدم البيت للاجتماع مع العائلات القليلة المجاورة، فهل تخدمين الكلمة بينهم؟"

فقلت له "وعما تريدني أن أتكلم؟" "فقال على الفور" عن يسوع المسيح وعن خلاصه. أليس هذا هو الموضوع الأفضل" ثم بعد خدمة الكلمة أريدك أن ترنمي معهم بعض الترنيمات.

ولست أنسى علامات الابتهاج التي أشرق بها وجهه عندما قال هذا. ثم أضاف قائلاً "لو أنكِ بدأتِ الاجتماع في الساعة الثالثة فإن هذه النافذة ستكون مفتوحة ولسوف تعرفين أنني مشترك معكم في الترنيمة".

وكم كنت أود لو التقطت في ذلك اليوم الذي لا ينسى صورة لهذا الرجل الشيخ المهذب وللبقعة الجميلة التي يسكنها. كان مشهداً مؤثراً فإن هذا الرجل نفسه الذي كان يمثل مأساة، هوذا الآن نراه- داروين بعينه- غيوراً للإنجيل ومتحمساً "لعظمة الكتاب المقدس". هذا الرجل الذي استحدث بأرائه وأفكاره ثورة بين اللاهوتيين كانت مصيبة على كل الكنائس وحطمت مبادئ الإيمان عند كثيرين- داروين نفسه، بنظرة أسف واكتئاب، يندم على كل ذلك ويقول "إنه كان شاباً له أفكار غير كاملة التكوين وغير واضحة المعالم".

إن هذه الصورة الرائعة لداروين تتحدى العصريين اليوم. ويا لها من عبارة فيها كل معاني النقد للأفكار العصرية إذ يقول داروين أن أفكاره عن نظرية التطور كانت "غير كاملة التكوين وغير واضحة المعالم".

"الله بعد ما كلم الآباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة، كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه، الذي جعله وارثاً لكل شيء، الذي به أيضاً عمل العالمين" (عب ١: ١ او ٢).

عن مجلة Grace & Truth

الخدمة العربية للكرزة بالإنجيل هي هيئة إرسالية شغفها نشر كلمة الله في العالم العربي عبر الإنترنت وعبر وسائل إلكترونية أخرى. وتقوم بتوزيع الكتاب المقدس مجاناً للجالية العربية في أميركا الشمالية والقطر العربي وبلدان العالم. بالإضافة إلى مجموعة من الأقراص المضغوطة التي تحتوي على كتب روحية، عظات، تراتيل والكتاب المقدس. لمزيد من المعلومات الرجاء الإتصال بنا.

يحفظكم الله ويملاً حياتكم بالصحة والسعادة والسلام.

أسرة الخدمة العربية للكرزة بالإنجيل